وادي الفراشات

وادي الفراشات

أزهر جرجيس

The Butterfly Valley

By Azher Jirjees

الطبعة الأولى: يونيو ـ حزيران، 2024 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2024

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس ـ تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 721 - 54 - 5

رواية

وادي الفراشات

أزهر جرجيس

مسكيلياني

دار الرافدين
www.daralrafidain.com

إهداء

إلى الأرواح الغريبة أينما حلّت.

فأين نسينا الحياةَ؟ سألتُ الفراشةَ وهي تُحوّم في الضوء فاحترقتْ بالدموع!

محمود درويش

الفصل الأول

- 1 -

«احتفظ بهم كي لا تقف عاريًا في الريح!»

قالها النقاش بهدوء وهو يغلق الباب ويرحل.

لم يكن ذلك قولًا عابرًا، أو بيت شعر يبلل يبس الموقف، بل صفعة ظل أزيزها يرنّ في أذني خمسة وعشرين عامًا.

أواخر العام الفائت زارني في السجن خالي جبران جالبًا معه كيس طعام، وصندوق هدايا، أعانه أحد السجّانين على حملها. كان كهلًا محدودب الظهر هدّه المرض، وما خلا حسه الساخر لم يبق له من الدروع ما يصدّ به غيَر الزمان. «خذ، هذه آخر زيارة» قال وهو ينزل الأغراض. «إذا خرجتَ من السجن، فلا تنس أن تضع الورد على قبري يا نذل.»

لقد بدا لي ناعيًا نفسه، فقلت في محاولة للتخفيف:

ـ يومي قبل يومك يا خال.

فردّ مازحًا:

ـ إن شاء اللّٰه، ومن يكره!

ثم ودّع ورحل:

ـ اعتنِ بنفسك.. إلى اللقاء في جهنم.

انتظرته حتى غاب في الدهليز، وعدت خلف القضبان أفكّ أسر الهدايا. وضعت كيس الطعام قرب موقد الشاي الصغير، بينما أرحت صندوق الكارتون على السرير ورحت أفرغ جوفه بلهفة الأطفال؛ كتب يحمل بعضها إهداءات مؤلفيها، مفكّرة العام 2024، طاولة زهر، كراريس وأقلام، علب سجائر وخلطة شاي أعرفها.

وضعتها جانبًا ولم يبق سوى كتاب ملفوف بمنديل أبيض يرقد في القعر. رفعته وكشفت المنديل عن وجهه، فكان «دفتر الأرواح»!

شهقت ذاهلًا حين رأيته، فما غالبني الظن يومًا بأنه غدا رمادًا للزمن، ها هو ذا أمامي حي يرزق!

مرّرت يدي برفق على غلافه الصامد بوجه الأيام، ثم طويته وقلّبت ما بين الدفتين. كانت الأوراق باهتة كسحنة الموتى، ولها رائحة تشبه رائحة الكافور. أغمضت وشممتها، فمرّت من خلف الجفون ليلة الحادي والعشرين من شهر كانون الأول 1999، ورأيت النقاش وهو يحمل قفة الخوص وينقّل قدميه في الوحل سائرًا نحو القبور، ليقول من بعدُ: «احتفظ بهم، كي لا تقف عاريًا في الريح.»

- 2 -

قبل هذا لم أكن أعرف طريق المقابر ولا معنى أن تهيل التراب على شخص كان لساعات يشاطرك مهزلة الوجود. فأنا وإن ولدت في أرض يعشش فيها الموت، لم أر ميتًا في حياتي قط. حتى أبي الذي مات بيننا، لم أر جثمانه. كنت نائمًا فوق سطح الدار، ملتحفًا نسمات الفجر الباردة حين دوّت صرخات الرحيل. فتى في الثالثة عشرة، لا هم له في الحياة سوى ركل الكرة وجمع صور السيارات الصغيرة المحشورة في كيس العلكة. فزعت لصوت أمي، وقفزت مع إخوتي راكضين كالفئران على درجات السلّم الحجري. وصلوا جميعًا؛ أخي صبيح وأخواتي الأربع، وامتزجت الصيحات.

أنا الوحيد من بينهم لم أصل، وكأن أقدامي عالقة بالصمغ. مكثت أسترق النظر من خلف النافذة، ولم أر شيئًا. كان جسد أبي محاطًا بالثكالى. أطرقت وقد اختلطت مشاعري بين الحزن على فراقه والخلاص من ثقل وجوده. فعلاقتي بأبي لم تكن واضحة المعالم. مذ رأيت الدنيا وهو حبيس الدار، عاجز عن الكلام، يقضي جلّ وقته شاردًا وكأنه شخص غريب سقط علينا من السماء! لم نتبادل الحديث يومًا، ولا حتى نظرات الأبوة، وما خلا إيماءات مبهمة لم تكن بيننا أداة

للتواصل تذكر. على العكس من أخي الأكبر صبيح الذي عاش أيام صحوته، ويشعر أن رحيله ثلمة في جدار العمر.

يقول صبيح إن أبانا رجل طيب حنون، قضى وطرًا من حياته يزيّت المكائن في محطة القطار، ولا يعود في المساءات إلا وجيوبه ملآى بالحلوى. وكنا حين نسمع خرخشة الباب، نرمي بأنفسنا على الأرض متظاهرين بالنوم، فيمرّ علينا واحدًا واحدًا، يدغدغ آباطنا ويمنحنا الملبّس والمصقول، والكثير من الأحضان والقبل. لكنه سقط ذات يوم على السكة الحديدية وفضخ رأسه. غاب عن الوعي أيامًا طويلة، وعندما استيقظ، لم يتذكرنا.

لقد مرّ القطار على ذاكرته، فأمسى غريبًا. لكن أضرار السقوط لم تتوقف عند صندوق الذكريات هذا، بل تجاوزته لتُلحق بصاحبها الخرس وتسلبه القدرة على الكلام. ثم شيئًا فشيئًا أوهن الحزن قلبه وأرداه طريح الفراش.. ومذ ذاك غابت الحلوى والفرح عن بيتنا.

عواد الأخرس، هكذا يلقبه أهل حي السكك، الذين اجتمعوا ذلك الصباح لتوديعه. كانوا في فناء المنزل يتداولون مع أخي صبيح حيثيات التجهيز والدفن بصوت مرتفع، مبدين حرصهم على إنجاز الأمر وفق الأصول والشريعة.

تستوقفني الآن جملة كان قد قالها في الأثناء جارنا المتدين ذو الجبهة العريضة. كان قد اقترب من النعش المطروح وسط الفناء وظل يردد بنبرة عالية: «إكرام الميت دفنه.. إكرام الميت دفنه..» لم أفهم

الجملة بشكل جيد حينها، ولوقت طويل ظللت أسيرًا لعدم الفهم. كانت عبارة غائمة؛ ظاهرها التقدير وباطنها القسوة، فهي تسلب الإنسان حتى اسمه وتجعله محض شيء يكرّمه الطمر في التراب!

جلست تحت ظل نخلة البرحي دافنًا رأسي بين ركبتيّ محاولًا البكاء، دون جدوى. كانت أصواتهم تشغلني عن التركيز. زادها أن طائرة حربية اخترقت حاجز الصوت، فتشوّش عقلي وباءت المحاولة بالفشل.

في النهاية استجاب أخي صبيح لدعوات التعجيل بالخلاص من «الجنازة»، وبعد ساعة حُمل أبي صوب المغتسل المحاذي لمسجد الرحمن. كان التابوت، رغم الصيف، مغطى ببطانية ثقيلة، يحمله على الأكتاف رجال من بينهم أخي، ومتبوعًا بسرب من المشيعين المنادين: «لا إله إلا اللّٰه.. لا إله إلا اللّٰه..»

أما أنا، فسرت في ذيل الموكب إلى المغتسل، ثم تنصلت مفضّلا البقاء في الفناء الخارجي. لم تكن لي رغبة في رؤية ما سيجري عند الحوض. لذت خلف برّاد الماء المنتصب تحت النافذة أنتظر، وتسحبت بعد ذلك دون أن يشعر بي أحد وعدت. صعدت الدرج واختبأت في قن الدجاج حتى الليل، وفي الغد ارتكبت حماقة ستجعلني في مرمى سهام أخي صبيح؛ تركت البيت ولجأت عند خالي جبران حتى انقضاء أيام العزاء.

لم تكن لي قدرة على حضور مجالس الأحزان، ولا الأفراح. أصعب لحظات حياتي كانت عندما يأتي العيد أو يتزوج واحد من

أقاربي. أشعر حينها بأن الأنظار تتجه إليّ وحدي، وكأني قرد يتيم فوق خشبة السيرك، وهذا ما كان يربكني ويجعلني أخرق لا أحسن المشي.

ـ أين كنت؟

تساءل أخي صبيح وكفّه جاهزة لصفعي، فبلعت ريقي وقلت:

ـ في بيت خالي.

زعق في وجهي:

ـ هربت من العزاء؟! حتى البنات أرجل منك!

ثم صفعني وخرج.

- 3 -

رويدًا رويدًا تشكلت دولة أخي صبيح. تزوج مبكرًا، فحرمني من أن تكون لي غرفة ولو على سبيل المشاركة. غرفة نلصق على جدرانها صور نجمات السينما لنمارس معهن أحلام الليل ككل المراهقين في هذا الكون المكبوت. انتقلت إلى غرفة أخواتي الأربع، ولم أحتمل أكثر من ليلتين. لقد شعرت بالعار وسط كتيبة الإناث، لا سيما وأن البثور قد بدأت باجتياح خدَّي، وصوتي صار خشنًا كذكر البط. غرفة أبي معفرة برائحة الموت، وهي على أية حال مشغولة من قبل أمي. لم يبق أمامي سوى غرفة الضيوف، وتلك الأريكة التي أصبحت سريرَ نوم، ومفرش طعام، وطاولة للقراءة. لقد استبحتها حتى استغاثت وتعالى صريخ مفاصلها.

كانت أزمتي مع المكان كبيرة، لكنها تفاقمت عندما بدأت حرب البكالوريا. أقول حرب لأنهم يضعون الواحد منا في استنفار يفوق ما يستدعيه «إنذار جيم»! قلق وتأهب وحثّ وهووي هووي. الأهل والمعلمون والجيران وحتى طير اللقلق فوق المئذنة، كلهم يدفعون بنا إلى تلك الحرب، ويحذروننا صباحًا مساءً:

ـ حذارِ من التهاون، البكالوريا أمامكم، والجيش وراءكم!

كنت في النهار سجين الأريكة، وفي الليل أخرج إلى الشارع وأقرأ تحت عمود الكهرباء. صحيح أن كتيبة من البق تظل تمازحني هناك وتنهش زندي، إلا أنني أعود بحصيلة قراءة ترضي أمي، فقد أعطيتها عهدًا على أن أكون ما تريد؛ طبيبًا يرفع رأسها أمام الجارات. نسيت اللعب والونَس وانحنيت لأجلها على الكتب. وللتاريخ، فإنها لم تقصّر معي في لفائف الخبز المحشوّة بالجبن تارةً، وبالفجل المغسول تارةً أخرى.

ذات يوم تشاجرت اثنتان من أخواتي وتعالى الزعيق في المنزل، فدخلت أمي قائلة: «اذهب إلى مكتبة خالك جبران.. ادرس هناك.» كانت فكرة عظيمة.. عظيمة إلى حد أنها قضت على مستقبلي.

- 4 -

يملك خالي جبران متجرًا لبيع الكتب يطل على نصب التحرير من جهة شارع السعدون. كان فيما مضى دكانًا صغيرًا لبيع الجلود. اشتراه من صاحبه في سبعينيات القرن العشرين وجعل منه مكتبة. وبعد أعوام ضم إليه الدكان الموالي وفتح أحدهما على الآخر. كسا الأرض بالبلاط الملون بدل الإسمنت، ووضع رفوفًا من خشب الصاج المدهون بالدملوك المخمّر، ثم علّق على مدار هامات الجدران صورًا لأدباء ومفكرين، تم رسمها بالفحم وتأطيرها بأُطر أنيقة موحّدة.

المناضد الوسطية ضاعفها، وشيّد في العمق حمّامًا، كما أصلح السرداب وأحاله مخزنًا للكتب. كذلك أبدل الواجهة الزجاجية بواحدة أكبر، وجعل اللافتة بحروف الخشب البارزة بعدما كانت بأصباغ البوية: «مكتبة جبران أسست عام 1972». ثم ظل يجددها كل حفنة سنين، حتى أصبحت جنة كما يصفها.

«الجنة مفتوحة لمن يقرأ.»

ستلاقيكم هذه العبارة المعلّقة كما لو كانت إذنًا بالدخول. افتحوا الباب وادخلوا، سترون رفوفًا كثيرة ومناضد وتلال كتب، يطل من ورائها رجل بدين يحوز من البهجة ما يثير حسد الملائكة. ذلك هو

خالي جبران، الملقب من قبل رفاقه بالملك، والمؤمن إيمانًا خالصًا من شوائب الادعاء بالعبارة الرابضة أمامه:

«وما الحياة إلا كتب وحفنة أصدقاء.»

وللحقيقة فإنه لم يكن مقيدًا بضيق معنى الحياة، بل كان مطلًّا من شرفة القراءة على حيوات لا عدّ لها، وهذا ما جعله والوجود في صلح دائم. كان شخصًا منظّمًا يربط عاداته بسقوف محددة غير قابلة للهدم والتجاوز؛ يمشي كل نهار أربعين دقيقة، يحمل المظلة تحت الشمس والمطر، يقرأ مائة صفحة في اليوم، يدخّن الغليون على رأس كل ساعة، ولا ينام ما لم يحتسِ كأسًا على صوت فريد الأطرش. أما طبعه المازح، فلم يطفئ لمعة الخجل في عينيه، ولم يمض به إلى شواطئ الصفاقة والصلف.. لقد كان الشخص الذي تمنيت أن أكونه.

في ذلك اليوم، كان قد وفّر لي مكانًا للدراسة، وخصّني بمروحة عامودية تذلل محنة الصيف، قائلًا:

ـ أريدك أن تأكل الدروس وتهضمها، وأي شيء تحتاجه، أخبرني به.

ـ شكرًا، خالي.

أجبته وانحنيت من جديد على كتاب الفيزياء، الذي خصصته بوقت للمراجعة أكثر من غيره. لكني اكتشفت أن رائحة الكتب على الرفوف تشتت عقلي، وتغويني بالقراءة خارج المنهج. فمددت يدي ذات مرة وارتكبت حماقة ستطيح بعهدي لأمي؛ سحبت كتابًا من

الرف المحاذي لرأسي، وشرعت بتقليبه. كانت رواية «تحت ظلال الصفصاف» لكاتب يدعى ابن السعيد.

قلّبتها دون نيّة مسبّقة للقراءة، فوجدتني بلا شعور غارقًا بين الصفحات. كانت رواية عن الحب والحياة، بطلها ممسوس بسوء الطالع، وغاية أحلامه أن تكون له حبيبة يشبك يدها ويسيران على ضفاف النهر تحت ظل شجر الصفصاف. حكاية مبللة بالعاطفة، والأباطيل والكذب الأبيض، يتخللها الكثير من الضحك والقُبل ومشاهد الغرام. الأمر الذي هيّج في نفسي الرغبة ودفعني، خشية الفضيحة، إلى إسناد الكتاب فوق حجري.

ـ ماذا تفعل يا ولد؟ اترك الكتب، وانتبه لدروسك.. الامتحانات قربت.

لم أشعر بوجود خالي، فارتبكت وقلت:

ـ حاضر، أستاذ.

بيد أن ما كان يحوكه صاحب «تحت ظلال الصفصاف» ألذّ من دروسي. لذلك، أهملت الأوامر، وعدت إلى الرواية ثانية محاولًا اختلاس القراءة ولو لبضع صفحات. لكن دون جدوى، فلخالي جبران عين ثالثة، والعياذ بالله، بل كان يرى بدرجة 360 وكأن رأسه عين!

نهرني من جديد، وامتثلت. أعدت الكتاب إلى الرف، وفي سرّي شتمت الحاجّة فطّومة، والدة الأستاذ لطيف، مدرس الفيزياء في ثانوية الطليعة للبنين.

جلست أفكر بعد ذلك في طريقة لإتمام القراءة. فكرتُ في سرقة الكتاب، وهذه جنحة مخلّة بالشرف لدى خالي جبران، فهو من أولئك المؤمنين بأن السارق لا يقرأ والقارئ لا يسرق، فإن فعلها الأول كان غبيًا، وإن فعلها الثاني ذهب شرفه. ماذا أفعل؟! فكرت وفكرت حتى أشفق الشيطان لحالي وألهمني فكرة للإفلات من تلسكوب الرقابة:

ـ اخلع غلاف الفيزياء واحشِه بالروايات!

وهكذا صار خالي جبران كلما رآني أقرأ الفيزياء، ربّت على كتفي وقال: «بارك اللّٰه فيك.» إلى أن كشف اللعبة في النهاية، فعلّق:

ـ إلى جهنم، أنت الخسران.

نبوءة سرعان ما صدقت، فقد خسرت حرب البكالوريا وضاع بذلك المستقبل.. ثلاث وستون درجة من المائة في الفرع العلمي، معدل لا يكفي حتّى لدخول الحمّام!

كان يمكنني، لو فكرت قليلًا وقرأت كثيرًا، أن أكون طبيبًا وأرفع رأس أمي في الحيّ. كان يمكنني أن أكون شيئًا مهمًا، فأنتشلها من بركة العوز، أن أحوز غرفة مستقلة ألصق على جدرانها ما أشاء، أن أحظى ببعض الاحترام في هذا الكون الأعور.. كان يمكنني ألا أكون في هذه الزنزانة الوضيعة. لكني مارست لعبة الإهمال على أصولها، وأحبطت كل محاولات السماء في الاستجابة لدعوات أمي.

- 5 -

بعد تلك الخسارة، لم يعلّق خالي جبران، ولم يذكّر بكلامه الآنف. كان قد تعاطى مع الأمر بهدوء واصفًا معدلي بغير السيئ تمامًا، مقترحًا دراسة المسرح ما دمت قد تلوّثت بحب الأدب، ولا أستطيع إليه سبيلًا. «المسرح اختصاص مهم وممتع، فكّر فيها.» علّق بلا زوائد.

فكرت فيها، ووجدتها حلًا مناسبًا، وفي المساء طرقت باب صديقي اللدود، مهند. كان الأخير قد حاز على معدّل أعلى مني بدرجة ونصف الدرجة، ويروم التقديم على كلية الشرطة. جلسنا عند الناصية أمام بيتهم، ورحت أحوك له القصص عن كلية الفنون وبنات كلية الفنون وما ينتظرنا من حبور وهناء.

ـ لكنهن في النهاية يتزوجن الضابط، الضابط هيبة وعزّ وفلوس.

ـ والتزامات ومخاطر.. أي ضابط يا معوّد؟ أحلى شيء في الدنيا الحرية، المدني حرّ.

ـ مممم، لا أدري، لكن كيف عرفت كل هذا عن طالبات الفنون؟ هل ذهبت من ورائي؟

ـ لا، من التلفزيون طبعًا، ألا تشاهد الأفلام والمسلسلات يا مهند؟

ـ طبعًا أشاهد.

ـ إي، هذا هو.

ـ ما هو؟ لا أفهمك، عزيز.

ـ يا غبي، الممثلات من أين يتخرجن؟ من كلية الزراعة مثلًا؟ طبعًا من كلية الفنون.

ـ ما أدراني! عادل إمام خريج زراعة.

ـ لا إله إلا اللّٰه، أقول له ممثلات يقول لي عادل إمام!

بالغت في الانزعاج قليلًا وهممت بالنهوض، فجذبني من ذراعي وقال: «اجلس يا أخي، مثل عباس المستعجل، دعنا نفكر.» وما هي إلا ليلة واحدة، حتى تم الاتفاق والتوكل. صحبته إلى مكتبة خالي جبران لنخبره بقرارنا، ونطلب مساعدته في التقديم. فلخالي جبران علاقات وفيرة، ويندر ألا تجد له صديقًا في مكان يتغذى على الكتب والمعرفة.

رفع سماعة الهاتف واتصل برفيق له، يعمل أستاذًا هناك، ليخبره أن اثنين من «تلامذته النجباء» في طريقهما إلى المجد. قهقه، ولا ندري ماذا أجابه الطرف الآخر ليقهقه، ثم وضع السماعة وقال هيا بنا.

أغلق الباب الزجاجيّ، وذهبنا إلى مبنى كلية الفنون، لنجد رفيقه باستقبالنا في مكتبه. سنعرف فيما بعد أنه أستاذ في قسم السمعية والبصرية. تحدثا فيما بينهما عن العمر وأيامه، وتجاذبا خيط الذكريات، ثم انعطف الحديث نحونا، ليتوجه لنا الرجل ببضعة أسئلة

عن الرغبة وما شاكل. فهِم من غباء الأجوبة أننا خام، لكنه طمْأننا بأن الاختبار ليس صعبًا في العادة، وما علينا سوى حفظ بعض المعلومات عن المسرح، والتحلّي بالرشاقة.

ـ رشاقة! الشغلة بيها هزّ!

همس لي مهند، فلكزته:

ـ صوتك، لا يسمعك!

وعندما خرجنا، طالبته بقليل من الصبر ريثما يتم قبولنا، فلربما أحببنا هذا النوع من الدراسة. اجتزنا الاختبار في النهاية، وارتدينا الزي الجامعي، فكان أن هدأ صاحبي واعترته علامات الرضا. أما أنا، فاكتشفت أن دراسة المسرح ألذ بكثير مما قاله خالي جبران. لا سيما وأن هنالك من يحلّيها؛ تمارا شاكر محسن، الفتاة التي احتلت قلبي وتربّعت فيه منذ يومنا الأول.

- 6 -

يومذاك كانت الشِباك قد نُصبت من قبل الإخوة الزملاء بغية الظفر بقلوب الجميلات. وقد جعل بعضهم من تمارا هدفًا لسهام نظراتهم الدنيئة. الأمر الذي غاظني كثيرًا وجرح كرامتي، رغم أني للتو عرفت اسمها. ما زلت أتذكرها بشعرها التمريّ اللامع، وهي تجالس صديقتَيها على المصطبة في الحديقة. كانت ترتدي قميصًا بأكمام قصيرة، وتنورة تعلو الركبتين بمسافة إصبعين تقريبًا، مما اضطرها إلى حماية ساقيها بمحفظة الأوراق. كانت لا تعير المارّين انتباهًا، ولا تردّ التحية إن ألقاها ذكر ما، على العكس من جليستيها.

أنا ومهند، كنا نمرّ من أمامهن بمعدل ألف وثلاثمائة مرة في الدقيقة، وفي كل مرة أومئ للفتاة الوسطى بالسلام، فتردّ الإيماءة، حتى أوجعها عنقها وأمسكت. كانت على أية حال فتاة خبيثة.

قلت لمهند ذات يوم إني سأقترب من تمارا وليحصل ما يحصل، فقال اذهبْ، إن اللّٰه معنا!

لا أدري لمَ حشر اللّٰه في مهمة كهذه، لكني لم أعلق ومضيت في طريقي. اقتربت منهن متحججًا بالسؤال عن موعد مسرحية الدكتور قاسم، وقد اخترت زاوية وقوف تسمح لتمارا برؤية الصورة على

المحفظة. كنت قد حلّيت غلاف محفظتي بصورة لميرفت أمين، فما بينهما من شبه كبير لا يخفى على كل ذي بصر.

ـ أي ساعة عرض دكتور قاسم؟

سألت زميلتنا الخبيثة ذات الجمال المتوسط، فقالت:

ـ بالعشرة ونص.

ـ أي مسرح؟

ـ الصيفي.

تماديت قليلًا:

ـ هنا، بالكلية؟

فردت بخبث:

ـ لا، بالمرّيخ.

جفلتُ لفظاظة الرد، وابتسمتْ تمارا، فشعرت أن اللّٰه معنا حقًا.

غير أني لم أكن واثقًا ممّا سيجلبه الغد، فالبون شاسع بيني وبين تمارا، ليس اجتماعيًا وحسب، بل خلْقيًا كذلك. هنالك مسافة في الشكل واضحة؛ تمارا حلوة كالقمر، أما أنا، فلم يأخذوا رأيي حين وضعوا شروط الوسامة. يكفي أنّ أنفي يسير أمامي إذا سرت، ليصل قبلي، ويطرق الباب أحيانًا. فوق هذا كنت غبيًّا في نصب الشراك، وينقصني الكثير من الدهاء لاستمالة قلبها.

فكرت في الكتب واستعرت حفنة روايات وقصص من مكتبة خالي، وتسلّحت ببعض الاقتباسات التي من شأنها فك الحديد بطرقة واحدة. ثم تربّصت بتمارا، حتى ظفرت بها وحيدة عند النافذة. كانت تلك من المرات القلائل التي لا تكون بصحبة رفيقتها الخبيثة والأخرى ذات الشعر المجعد. حيّيتها ودون لف ودوران طلبت محاضرات الأسبوع الفائت:

ـ تمارا، محتاج المحاضرات، إذا ممكن. ذاك الأسبوع ما لحقت أكتب.

ـ أوكي.

لبّت طلبي دون تردد، وأمسى خطها الناعم في حوزتي.

كان المحتوى جافًا ومملًّا كأي محتوى أكاديمي، لكن أصابع تمارا بثّت فيه الروح وجعلته أرقّ من شِعر السيّاب! قرأته مرة ومرتين وتسعًا، وفي النهاية ذيّلته باقتباس من رواية الجريمة والعقاب: «يحدث أحياناً أن نلتقي بأشخاص لا نعرفهم، ومع ذلك نشعر بالاهتمام بهم وبدافع يقرّبنا منهم قبل أن نبادلهم كلمة واحدة.»

راق لها الكلام وتساءلت عن صاحبه، فجئتها بالرواية كاملة. ثم رحنا نتبادل الكتب، وكتابًا بعد كتاب حتى سقطت الأسوار ودخلت قلبها بسلام آمنًا.

في الواقع، لم يكن الولوج إلى قلب تمارا عسيرًا، بل المكوث فيه ما كان ذلك، فأنت لا تدري متى يضطرب، فيلفظك خارجًا. كان

كالبحر ممسوسًا بالمد والجزر، رغم أن صاحبته في غاية الوداعة! لكن ذلك لم يضعف عزيمتي البتة، فقد أحببتها جملة وتفصيلًا، في زعلها ورضاها، في غضبها وهدوئها. صحيح أن مزاجها المتبدل بين ساعة وساعة كان يجعلنا كالمجانين في نظر مهند ومن حولنا، إلا أن ابتسامة واحدة من شفتيها كانت كفيلة بنسيان العالم.

ثم إن هنالك رحمة كرحمة الأمهات اعتاد أن يُظهرها قلب تمارا أيام الضنك. كانت تكشف لي ورقة الإجابة لأنهل منها ما أريد، فتكون النتيجة ناجحًا بتقدير جيد. لست وحدي، بل حتى مهند كان ينجح بفضلها. كان يأتي يوم الامتحان منزوعَ القلق مطمئنًا، يضاحك هذا ويمازح ذاك.

ـ أراك مطمئنًا يا صديقي!

أسأله، فيجيب:

ـ لما القلق وتمارا موجودة؟

ـ احترم نفسك، مهند، تمارا خاصّتي.

ـ بالطبع، تمارا بمثابة زوجة أخي، لذلك فأنا لا أعَدّ غشّاشًا عرفًا.

ثم ينجح، فيتنصّل عن دعوتنا على قدح شاي كحد أدنى!

ذات يوم كنا جالسين، نحن الثلاثة، في كافتيريا الكليّة نشرب العصير، وقد أصرّ عليّ مهند أن أقرأ قصيدة:

ـ اقرأ لنا أيّ شيء تحفظه.

ـ ليس وقتها يا مهند.

ـ ليس للشعر وقت، لا تردّني يا عزيز.

نزلت في النهاية عند رغبة صاحبي، واستجمعت ذاكرتي. ثم نظرت في عينَيّ تمارا وقرأت أبياتًا لنزار قبّاني: «دعيني أنادي عليك بكل حروف النداء.. لعلي إذا ما تغرغرت باسمك، من شفتي تولدين.. دعيني أؤسس دولة عشقٍ، تكونين أنت المليكة فيها، وأصبح فيها أنا أعظم العاشقين.. دعيني أقود انقلاباً يوطد سلطة عينيك بين الشعوب.. دعيني أغيّر بالحب وجه الحضارة.»

صفّق مهند وخجلت تمارا، فشعرت بالبهجة تُغرقني. غير أن الأمر لم يدم طويلًا. فقد جاءت صاحبتها الخبيثة فزِعةً تقول:

ـ تمارا، الحقي نفسك، فصلوك من الكلية.

- 7 -

كانت تمارا، رغم اجتهادها، متعثرة في دروس العملي، إذ تملك من الخجل ما يمنعها من صعود الخشبة. ولكم مرة فكّرت في ترك المسرح والانتقال إلى قسم آخر لا تضطر فيه إلى المثول أمام الجمهور، لكنها سرعان ما تتراجع لأجلي. ليست الخشبة وحسب، بل كانت تخجل حتى من الرد حين يذكر اسمها في قوائم الغياب. «لا عليكِ، دعي الأمر لي.» قلت حين وقفتْ باكية أمام لائحة الإنذار بالفصل. لقد ظنّت صاحبتها الخبيثة بأن الفصل قد تم، ولربما عرفت أنه إنذار وحسب، لكنها تقصّدت إفزاع تمارا.. لا أدري. المهم أني عالجت الموقف وذهبت إلى سكرتيرة القسم ورشوتها بلفّة فلافل، فكان أن قبلت الرشوة بسرور بالغ، وشطبت على علامات الغياب.

ركوب الحافلة يشكل معضلة هو الآخر لتمارا؛ إذ لا تركب ما لم تكن الحافلة فارغة، فإن ركبت، دفعت أجرة مضاعفة من أجل ألا يجاورها أحد. هذه أيضًا تم حلّها، وصرنا نركب سوية، رغم أن طريقنا ليس واحدًا. كنت أوصلها ثم أبدل الحافلة مرتين حتى أصل.

ذلك بالطبع لم يحدث إلا في وقت لاحق، ففي الشهور الأولى،

وقبل تورّطها معي، كانت تأتي وتذهب مكرّمة كالأميرات. في الصباح يوصلها السيد الوالد بسيارته الفارهة، وبعد الظهيرة تستقل سيارة أجرة. لكنها تنازلت عن مقاعد النعيم، وغدت تركب، من أجل عينيّ، حافلة الشعب الحمراء. كانت تخشى جرح كرامتي، الأمر الذي ضاعف حبها في قلبي حتى تورّم.. ولو أحببتها أكثر لانفجر وتشظى!

كنت بين الفينة والأخرى أمرّ بخالي جبران، أستعير منه دواوين الشعر وقصص الحب، وأنكب على حفظها. وكان يلاحظ بهجتي، فيعلّق: «أخشى أن واحدة من طالبات الفنون قد سلبت قلبك!» فأرد عليه بصراحة الأصدقاء:

ـ سلبته وشيّدت عليه عمارة بعشرة طوابق.

ـ حلوة؟

ـ أحلى من زبيدة ثروت.

ـ محظوظ ابن كميلة!

قلت «زبيدة ثروت» لأنها آلهة الجمال عند خالي جبران.

وفي الحقيقة فإن تلك القصص والقصائد قد نفعتني في كتابة الرسائل، حتى أن الشك نازع تمارا ذات يوم واتهمتني بالسرقة. لكنها حكمت ببراءتي حين علمت هوسي بكتابة الرسائل. لا أتذكر أني كنت قد غفوت ليلة دون ورقة تنام تحت وسادتي. أخط الكلمات لأجلها، وعندما تكتمل الرسالة أدسّها بين ورق المحاضرات وأركب الحافلة صحبة مهند، الذي جعلته مرسال غرامنا.

ـ يا أخي أنت خِبِل؟! سلّمها لها بنفسك وخلّصني. لماذا تتعبني معك؟

يقول صاحبي، فأجيب:

ـ لو تعلم منزلة مرسال الغرام عند اللّه، لشكرتني.. أنا أعبّد لك طريق الجنة يا غبي.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله!

تبتسم تمارا كلما ذهب إليها مهند حاملًا رسالتي. ثم تذهب إلى النافذة لتقرأها كمن لم تقرأ رسالة حب من قبل. تكتب بدورها قصاصة وترسلها معه، أو تقطع وردة وتقول له: «خذها لعزيز.» فينفّذ الطلب أحيانًا، وينفجر بنا أحيانًا أخر:

ـ واللّه أنعل أبوكم لا أبو شرفكم.. مجانين!

ثم يعافنا ويذهب، فنتبعه ونرضيه بزجاجة بيبسي.

هكذا كانت الأيام تمضي هانئة مع تمارا، لكن طيفًا مخيفًا كان يلبد سماءنا، كلما استحضرنا المستقبل. لن يرضى بي أبو تمارا والحال تلك. أجل لن يرضى بي والحال تلك. ستنقضي سنوات الجامعة عاجلًا، وسأجد نفسي واقفًا أمام الرجل. أنّى لي بإقناعه؟ وهل يكفيه قسمي بالحفاظ على ابنته وحبّها حتى آخر يوم في عمري؟ هل ترضيه قصص الحب من الأساس؟ أم أن ذلك سيعرّض تمارا للضرب والتنكيل بدعوى الفضيحة؟!

ـ أبي إنسان طيب.

تقول تمارا، فأجيب:

ـ ليته كان إبليس، المهم أن يرضى بي نسيبًا.

ـ احترم نفسك عزيز، هذا أبي.

ـ احترمناها.

واصلنا حياتنا كما هي، ومرّت الأيام كزائر خفيف حتى حانت لحظة الحقيقة. ما زلت أتذكر كيف جلست تمارا باكية في حديقة الكلية. كانت دموعها تنسكب كالزيت على نار القلق، إذ تجهل ما سوف يحدث. كلامها عن قلب أبيها الكبير تبدد تحت ضوء الوداع، وها هي ذي حائرة مثلي. بيد أن الصبر ليس من شيم الحمقى، إذ بعد يومين وحسب من وداعنا الأخير، عزمت على وضع النقاط على الحروف؛ ذهبت خاطبًا تمارا من أبيها، فتم طردي بهدوء.

- 8 -

كان حضرة العم شاكر جالسًا في متجره بالجادرية. متجر كبير للسلع المعمّرة، مغلفة جدرانه الداخلية بالخشب والمصابيح الحديثة. وكان الرجل متواضعًا رغم الثراء الواضح في المكان، لكنه رفضني دون أن يعير كرامتي شأنًا: «واضح أنك شاب طيب، لكن من حقي أن أطمئن على ابنتي.. لذلك أنا آسف.»

كانت صفعة قاسية، عدت في إثرها كدِرًا أفرك أصابع الخيبة.

لم أتصل بتمارا يومذاك ولم أبلغها بالنتائج. ستبكي لو أخبرتها بالجواب، وبكاء تمارا يجعلني أضعف مما أنا عليه. لذلك التزمت الصمت ونمت ثلاثة أيام متواصلة. وعندما تشبعت بالكآبة والملل، اقتنعت أن ما حصل منطقي تمامًا، فمن ذا الذي يرتضي اقتران ابنته بشخص لا يملك أجرة الحافلة؟!

لم أكن مؤهلًا لدخول دائرة الشهر العقاري، فضلًا عن مؤسسة عملاقة كمؤسسة الزواج! لكن جذوة الحب كانت قد اشتعلت، وحين تشتعل جذوة الحب في قلوب المحرومين، فإن عطبًا يصيب مراكز التفكير في أدمغتهم، يتلوه خرس، فصمم، فشلل في الأطراف، ثم لا يشفون ما لم يجتمعوا

بحبيباتهم تحت سقف واحد. هذا ما حصل معي حين عرفت تمارا.

رضيتُ بالنتيجة، وعاهدت فتاتي على أن أصلح الأمر وأعود لخطبتها من جديد. «سأكون جاهزًا، لا تقلقي.» قلت لها وذهبت إلى دائرة التجنيد. ذهبت رفقة مهند، ليتم سوقنا فيما بعد إلى مركز تدريب المشاة في النهروان. ومن ثم إلى كركوك.

كانت كركوك بالنسبة إليّ أبعد من كندا، ولولا مهند لفررت من الجيش. «سيقطعون أذنك، وحينها ترفضك حتى القطط.» ظل يردد كلما كشفت له النوايا.

الكتب هي الأخرى ظلت تصبّرني على فراق تمارا. وفي الإجازات الدوريّة أحمل من مكتبة خالي جبران ما يقع تحت يدي منها. كنت أقضي أسبوع الإجازة بين المكتبة والمنزل والمقهى، تتخللها مواعيد خاطفة مع تمارا. نتواعد أحيانًا في السوق، وأحيانًا أخر في عيادة الأسنان، فالكذب جائز في المواعيد الغرامية.

كانت اللهفة آنذاك عنوان الحياة، والرسائل هدايا المحرومين، إذ لا تعود تمارا دون رسالة سهرتُ الليل في كتابتها، ولا أعود دون شوق لموعد لاحق.

- 9 -

قضيت في كركوك ثمانية عشر شهرًا، هي مدة الخدمة الإلزامية لحاملي الشهادة الجامعية في تلك الأيام، وعدت إلى بغداد ساجدًا على أرضها مثل أسير محرّر. ثم شرعت، أنا ومهند، في البحث عن وظيفة.

لقد أردنا أن نكون جاهزَين، فمهند هو الآخر متورط بالحب؛ ويسعى إلى الزواج من ابنة عمّته، الطالبة في المرحلة الرابعة من كلية الصيدلة. غير أن الصدمة كانت أكبر من السعي، فأول تعليق ورد على شهادتنا في المسرح: «بلّلها واشرب مايها»!

هذا ما اتفق عليه الجميع، مع ضحكات صفراء وأخرى نحاسية مخلوطة بالنيكوتين والتبن.

مهند، لم يفقد الأمل، وظل متعلقًا بخيط نحيل كان قد مدّه إليه واحد من أقاربه. أما أنا، فأدركت أنّ الشهادة الجامعية في بلد يضرب الجوع خاصرتيه لهي أدنى قيمة من المسمار الذي يشدّها إلى الحائط، فتدرّعت بالتواضع ورفعت لافتة الرضا بأي عمل كان. حتى أني بالغت قليلًا، واعترضت ذات صباح طريق جارنا المحامي، وسألته فيما لو كانوا في المحكمة بحاجة إلى موظف خدمات أو حاجب على

باب السادة القضاة. التافه، ضحك وهز رأسه يمينًا وشمالًا ثم مضى في طريقه متذمرًا وكأنه التقى مجنونًا!

لست مجنونًا يا عزيزي، لكنها بغداد؛ مدينة الفنتازيا العجيبة، فابتسم فداك قلبي.

لم أيأس بعد، أجل لم أيأس، وانحدرت في التواضع إلى حد الوقوف على الأرصفة. ذهبت إلى سوق الشورجة وابتعت تشكيلة ميداليات افترشت بها أرصفة الكرادة. وبعد عشرة أيام من الوقوف هناك لم أبع سوى اثنين منها. أبدلت جنس البضاعة، وجعلتها فانيلات رجالية، فكانت المنافسة أشدّ وأقوى.

جاءني مهند ذات يوم بخبرين؛ يفيد الأول أنّ قريبه قد احتال عليه ولن تكون هنالك وظيفة ولا هم يحزنون، بينما يقضي الثاني أنه وجد مشروعًا من شأنه أن ينقلنا إلى منطقة بعيدة.

لم أسأله أين تقع تلك المنطقة وما مسافة بعدها، بل اكتفيت باحتمال أن نعمل، وقلت: «هات ما عندك يا صاحبي.. أطربني.»

قدّم لي سيجارة وأشعلها، ثم أشعل له واحدة وبدأ يغرّد. قال إنه مشروع للتثقيف الجنسي؛ نبيع بالسر أفلامًا «ثقافية» تنفّس كبت الشباب وترفّه حيواتهم. وإنه مشروع مربح يجعلنا قادرين على جمع تكاليف الزواج بوقت سريع، بل ويمكن تطويره إلى التجارة بالجملة، ومن ثم الاستفادة من الأرباح في عمل أبيض كبيع الأجهزة الإلكترونية أو السجّاد أو حتى السيارات.. «كفى،

فهمنا فهمنا.» أوقفته وفكّرت في كلامه، فوجدت الغاية نبيلة نوعًا ما.

غير أني تداركت:

ـ لكن، هذه عليها إعدام!

ـ ليس لهذا الحد، لا تبالغ يا عزيز، الجماعة زينين في هذا المجال.

ـ أي مجال تقصد؟

ـ أقصد بيع الأفلام «الثقافية»، لو كنا نبيع الكتب الممنوعة ربما نتعرض للشنق، لكن عقوبة السكسي هيّنة، كم يوم سجن ونطلع.

ـ عاشت الحكومة.

هتفت، وعدت أسأل ثانية:

ـ مهند، أنت متأكد من هذا الكلام؟

ـ متأكد طبعًا، ناجي أعطاني معلومات كاملة.

ـ أي ناجي؟!

ـ ناجي دَدَو، أكبر مموّل أفلام «ثقافية» ببغداد.

ـ والنعم!

أعطيته موافقتي وقمنا بزيارة إلى محل دَدَو في الباب الشرقي. كان الأخير متسترًا تحت لافتة ورشة تصليح أجهزة الفيديو كاسيت. رازنا بعينيه الحمراوين، وأومأ موافقًا على التجهيز. دفعنا له مبلغًا مقدمًا ومنحَنا مجموعة أفلام مغلفة بصور لأبطال هوليود. وشرعنا بالعمل، لنتفاجأ برواج البضاعة وسرعة تصريفها!

كان الطلب على تلك الأفلام مرتفعًا، بل في بعض الأوقات، كليالي الجمعة والعطل الوطنية، ينافس الطلب على الفلافل، مما دفعنا إلى زيادة الوتيرة والبيع أكثر.

غير أن المعلومات التي مررها السافل ناجي دَدَو لشريكي حول عقوبة بائع الأشرطة الممنوعة لم تكن دقيقة، إذ سمعنا بعد أيام من أحد الزملاء بأن زوج أخته هو من دلّه على هذا الطريق قبل أن يسجن. وأن الأخير ما يزال قابعًا في السجن منذ ستة أشهر!

تشاجرت ومهند وتبادلنا الاتهامات حول من ورّط الآخر؛ هو الذي اقترح العمل في بيع الأفلام، أم أنا الذي ورّطته بدراسة المسرح.

كان يردد وفمه يرتجف:

ـ كله منك، لو تركتني أقدّم على كلية الشرطة، لما تورّطت في هذا الخراء؟

ـ يا حمار، من يقبلك في كلية الشرطة، هل نسيت أن والدك معدوم؟

ـ ما أدراني! المهم، ماذا تريد الآن؟

ـ لا شيء، دعنا نَرَ ما يحدث.

ومضينا في الحماقة حتى آخرها. وما هي إلا بضعة أسابيع حتّى داهمنا رجال الأمن.

الخبر السعيد أنهم ألقوا القبض على ناجي دَدَو وضاع خلف القضبان، فلولاه لما تورّطنا. أما الخبر السعيد الآخر فإنهم لم يكونوا

وقتئذ بأتم لياقتهم، مما ساعدنا على الإفلات. ألقينا البضاعة في إحدى خرائب الباب الشرقي وسلكنا سبيل الأزقة حتى أفلتنا بسلام.

لكنْ، عندما عدنا في المساء لم نجدها. «راحت فلوسك يا صابر.. لا زواج ولا ضراط!» قال مهند نادبًا حظه، وجلسنا نكشّ الذباب من جديد في مقهى العاطلين.

- 10 -

أجمل ما في ذلك الزمان هو الخيال. كان خيالنا خصبًا إلى حدّ احتمال النجاح في بلد قائم على الرشوة والواسطة. وهذا ما حثنا، أنا ومهند، على التقديم لدراسة الماجستير كخطوة أولى في سلّم التدرّج العلمي. سنحصل على الشهادة في سنتين أو أكثر قليلًا، ثم نقدم على وظيفة في الجامعة، ندرّس المسرح، ثم نتقدم لنيل الدكتوراه، وخطوة إثر خطوة حتى نمسي أساتذة نتقاضى راتبًا واحترامًا يليق بجهودنا الجبّارة في خدمة الوطن.

بهذه الطريقة فكرنا ونحن جالسان في مقهى العاطلين. وفي الغد ذهبنا لملء استمارات التقديم.

كانت الشروط متوفرة فينا، وكدنا أن نحجز مكانين في لائحة المقبولين، لكن اثنين جاءا من الهواء واحتلا مكاننا دون اعتذار! بل لم يتطوّع ابن كلب ما للإجابة على تساؤلاتنا البلهاء حول إمكانية التقديم مرة ثانية من عدمها.. لقد تمت إهانتنا بشكل لائق.

وهكذا ظلت الخيبات تتواصل، حتى أوشك صبر تمارا على النفاد. كانت مع كل مكالمة عبر الهاتف تشكو التضييق الذي يسلط عليها في

المنزل بسبب طابور الخاطبين. أما أنا، فكلما أغلقت السماعة كفرت بالفقر، الذي لولاه لكنت واقفًا في أول الطابور.

جلسنا من جديد نفكر في مشروع ينقذنا، وكان مهند يقترح كل ما يخطر على باله:

ـ ما رأيك في معمل خياطة؟

ـ مكائن الخياطة غالية.

ـ ما رأيك في معمل همبرگر؟

ـ اللحوم غالية، والمنافسة كبيرة.

ـ معمل هلس؟

ـ هلس أمك.

ـ احترم نفسك عزيز، أقصد معمل هلس الدجاج.

ـ مكائن الهلس أكثر من الهم على القلب. أرجوك يا مهند، فكّر بطريقة عملية؛ نحتاج إلى مشروع مربح بدون رأس مال كبير.. فلوسنا قليلة، افهم.

ـ ممم، مشروع مربح وبدون رأس مال كبيييه.. بائعات قيمر بكراج النهضة.. ماكو غيرها!

ـ رجاءً، ليس وقت مزاحك الآن. ستطير تمارا من يدي إن بقيتُ بلا عمل.

ـ ومن سمعك، عمّتي تشترط غرفة نوم جديدة.. تصوّر تريد مني غرفة نوم جديدة!

فكّرنا وفكّرنا، ولم نجد في النهاية ما هو أنسب من ماكينة بيبسي. عثرنا على واحدة معروضة للبيع في سوق الجمعة مع عربتها. كانت صدئة ومخسوفة الخاصرة، وواحد من بخّاخاتها لا يعمل، لكن العربة بصحة جيدة. دفعنا فيها مبلغًا زهيدًا، ثم حملناها إلى منزل مهند لإصلاحها وتجهيزها.

وضعناها في الفناء الخارجي وغسلناها بخرطوم الماء، ثم أزلنا الصدأ عن بدنها وفتحنا البخّاخ المسدود، كما حاولنا قدر الإمكان تسوية الخسف. جلبنا بعدئذ علب بوية وفرشاة، طلينا بدنها بالأبيض، ورسمنا علامة شركة بيبسي. أما العربة، فجعلناها زرقاء، وسطّرنا عليها بضع عبارات تجارية: «مشروبات الأخوين.. بيبسي أصلي.. اشرب وانتعش.. ليس لدينا فرع آخر..» ثم جهزنا الخلطة، وحجزنا مكانًا في كراج العلاوي، وأخذنا نتناوب العمل على الماكينة هناك.

حتى الساعة لا أدري إن كان اللّٰه سيغفر لنا ما أدخلناه في بطون الجنود والمسافرين من شراب لا يمتّ للبيبسي بصلة!

المثير للسخط أننا مع كل ما بذلناه من جهود لتقديم بضاعة مغشوشة، لم نربح. كانت المنافسة أعظم مما تصوّرنا، فاضطررنا إلى بيع الماكينة والخلطات والأقداح.

«كل مشاريعك فاشلة» يردد خالي جبران. «تعال اعمل معي في

المكتبة قبل أن تخسر نفسك.» وبالرغم من حبي للمكتبة إلا أني آليت ألا أشارك الرجل رزقه، لا سيما وأن سوق الكتب قد أصابها الكساد هي الأخرى وضربها إعصار النسخ والتزوير.

ـ لا تنسَ أن الفشل أساس النجاح يا خال.

ـ ومتى تنتهي من تشييد الأساس، يا بعد خالك؟

ـ عندما يأذن اللّٰه بذلك.

ـ موت يا حمار لما يجيك الربيع.

هكذا ظل خالي جبران يشاكسني، وهكذا واصلت رفض العمل معه، حتى طلبني عبر الهاتف ذات يوم حاملًا البشرى:

ـ فُرِجتْ، تعال للمكتبة بسرعة، لا تتأخر.

وأغلق السماعة دون توضيح!

ـ 11 ـ

ذهبت سيرًا على الأقدام، وفوجئت بالمكتبة خالية. درت في المكان حائرًا، وما هي إلا دقائق حتى تنامى من جهة الحمّام صوت السيفون، ثم أقبل خالي جبران وهو يشد بنطاله.

ـ مرحبا خال، ما الخبر؟ شوّقتني.

ـ اجلس، سأحكي لك.

جلست على الكرسي الخشبي المقشّر، بينما اتّخذ الخال الرؤوم مكانه خلف مكتبه. أخرج من الدرج زجاجة كولونيا ريفدور، عطّر يديه وقال:

ـ لقد وجدت لك وظيفة تحلم بها.

ـ يا فرج الله!

ـ دع اللّٰه وشأنه، واسمعني.

ـ كلّي آذان صاغية.

ـ لي صديق، ابنته حبلت.

ـ مبروك، لكن ما شأني؟

ـ لا تقاطع، واسمعني للنهاية.

ـ حاضر.

أغلقت فمي، وبدأ خالي يقص حكاية ابنة صديقه ونضالها في الحفاظ على زيجتها.

ـ لقد أوشك ابن الكلب ـ يقصد زوجها ـ أن يأتي لها بضرّة لأنها لا تحبل. راجعتْ ألف طبيبة وطبيب، وألف عرّافة وعرّاف، ولم تفلح المسكينة في أن تجعل التيس أبًا. إنّ رَحِمها لا ينتج البيض الناضج، وهذا من أحكام الطبيعة كما تعرف يا بني.

هززت رأسي، لأنّه سيفتح نقاشًا طويلًا إن لم أفعل ذلك.

ـ وبعد خمس سنوات حبلت واستقر البيت. هكذا هو قدر النساء؛ أن يمسكن البيت من الوقوع كما تعلم..

ـ النتيجة؟

ـ النتيجة أنها قررت الاستقالة من عملها في أرشيف دائرة الفنون، والتفرغ للمولود القادم.

ـ آهاا!

ـ وسوف تزكّيك عند مديرها لتحلّ محلها.

ـ موظف أرشيف؟!

ـ إي، موظف أرشيف، ما به موظف الأرشيف؟ ما يعجب جنابك؟

وقبل سماع الجواب، أردف:

ـ ستكون موظفًا حكوميًا.. افرح يا كلب.

رضي «الكلب» بالوظيفة، ومع أول راتب ذهب خاطبًا من جديد.

كان العم أبو تمارا قد كرر ما قاله آنفًا؛ لا يستطيع الاطمئنان على ابنته معي. وكما المرة السابقة قالها باحترام، وأرجعني خائبًا. شكوت لخالي جبران الأمر، فقال: «حسنًا فعل، أين أنت من الزواج يا عزيز؟ ما لك وهذه المتاهة؟»

لكني لم أتراجع، وكررت الطرق على الحديد حتى فلّ. «أعطني اسمه الكامل وعنوانه ودعني أرى.» قال خالي أخيرًا، فقفزت وقبّلته في جبينه.

ـ لكن، تذكّر كلامي جيدًا؛ ستندم.

ـ موافق، أنا أحب الندم يا خال.. الندم إحساس راق.

ـ طاح حظّك.

ـ شكرًا جزيلًا.

أدار الخال محرّك علاقاته حتى توصل في النهاية إلى عم تمارا. كان الأخير يساريًّا مطرودًا من الوظيفة، ويملك مقهى في شارع الرشيد. زاره رفقة واحد من الأصدقاء وروى له الحكاية، فتبرّع الرجل بالوساطة. إلا أن الأمر لم يمض دون خسائر، فبعدما تحدّث صاحب المقهى مع أخيه، تلقّت تمارا من الضرب ما جعل وجهها متورّمًا كالبالون الأزرق.

«فضحتينا يا بنت الكلب» كان يردد بين لكمة ولكمة، ولولا أن حالت الأم بينهما لقضى عليها. هكذا أخبرتني تمارا عبر الهاتف. كان الرجل غاضبًا أيما غضب، لكنه أدرك في النهاية بأن ابنته «عاشقة» ولا حلّ لها سوى الاقتران بعشيقها المدعو عزيز عوّاد، فكان لنا ما أردنا.

الفصل الثاني

- 12 -

«الزواج عمل شاق.» قالها خالي جبران، وهو يمنحني نقوط العريس. فشكرته لرفع المعنويات وضحكنا.

كانت أم تمارا قد زارتنا في البيت أيام الخطوبة، وكتبت تقريرها. أخبرتْ زوجها الغاضب أن بيتنا هرم وضيق. هذا على الأقل ما كشفته تمارا، التي بدا من طريقة كلامها أنها تخفي الكثير من الفقرات الجارحة لكرامتي. فاشترط الرجل ألا تعيش ابنته معي في «قنّ الدجاج»، ومن هناك بدأ مسلسل العذاب.

في الواقع، لم تكذب المرأة على زوجها، فالبيت لا يسعنا، وماكينة التفريخ لدى أخي صبيح لا تتوقف. بل، قبل هذا، ولضيق المكان كانت حرب الاستقلال تدور في عقلي، لكني أجّلتها ريثما أكون مستعدًّا.. الآن حان وقتها.

رضيتُ بشرط الرجل وطفقت أبحث عن مسكن مناسب لابنته. اقترح أن يُفرغ لنا أحدَ بيوته، فرفضتُ. اقترح أن يتقاضى منا إيجارًا رمزيًّا، أيضًا رفضت. كانت طبول الحرب قد دقّت، ومن يخوض الحرب عليه أن يتحلى على الأقلّ بالكرامة.. هكذا حدّثتُ نفسي، وكانت تمارا تؤازرني.

عثرت آخر المطاف على منزل في الصالحية، تعود ملكيته إلى تاجر قماش له من البخل ما يحث على شتمه. منزل مهجور، جزء كبير من سياجه الخارجي متداع، وستارة السطح متهدمة، كما أن البلاط مهشّم، والنوافذ مغطاة بالنايلون والجرائد. لم يكن منزلًا صالحًا للسكنى في الواقع، لكن ضيق الحال يقتل ترف الاختيار. لقد كان كما وصفتْه عمّتي حين جاءت لزيارتنا: «خرابة». ولأنه كذلك، ذبل الهوى وتكدّرت حياتنا.

ما زلت أتذكر استغاثة تمارا في صباح عرسنا، وصراخها من جهة الحمّام:

ـ عزيز.. عزيز.. الحقني.

هرعتُ بالفانيلا والشورت حافيًا أردد:

ـ خير.. خير..

فوجدتها محشورة في الزاوية خائفة ترتجف من وزغ على الحائط. لاذت بي قائلة: «عزيز، خايفة!» استعرتُ نعلها وقلت: «لا تخافي يا حبيبتي، أنا موجود.» ثم ضبطت الإحداثيات ورميت النعل، فأصبت الوزغ وأسقطته صريعًا تحت أقدامها. حملتُه من ذيله وخرجتُ منتصرًا لتحظى زوجتي بحمّام آمن.

إن واحدًا من أبرز معاني الرجولة قتل الوزغ لأجل الزوجات، هكذا يقول كتاب «كيف تكون زوجًا سعيدًا؟» الذي كنت قد اشتريته من أرصفة الكتب قبل العرس بأيام.

لكن معاناة تمارا لم تتوقف عند وزغ مشاكس أو فأر أو حتى صرصار، ولا حتى صوت مفاصل السرير وتقشّر خشب الخزانة، بل تعدّتها إلى ما هو أكبر. إن ما كان يزعجها حقًا هو ضنك العيش وقلة الحيلة.

أما أنا، فيزعجني أنها لا تبوح لي بشيء من ذلك خشية أن تجرحني. كان الكتمان يشعرني بالتقصير أكثر من الإفصاح الذي تمارسه الزوجات في العادة. شعور مربك ألّا تشتكي لك زوجتك مما يؤذيها، ولا تطلب ما تطلبه الأخريات عندما يودّعن أزواجهن عند الأبواب في العادة.

كانت تمارا تردّ على سؤالي عما ينقصها من حاجات شخصية بكلمة واحدة: «سلامتك حبيبي.» وكان جوابها ذلك يقتلني ويشعرني بالخزي قبل أوانه. فهو وإن بدا جوابًا أبيض خاليًا من المواربة، كانت أذني تترجمه إلى جملة طويلة فيها من التندر ما لا يخفى: «هِهْ، ومن أين لك المال كي تشتري لي الهدايا؟! اذهب هداك اللّٰه.» ثم لا أجد ما أردّ به الإهانة سوى ألا أعود ويدي خالية، فأجلب لها بين الفينة والأخرى هدية تحفظ ماء وجهي.

لكن أية هدية؟! ثوب بائس من البسطات، قلم شفاه يظل أسير الأدراج، فتمارا لا تحبّ وضع الماكياج، رواية يرفض خالي جبران أخذ ثمنها، ربع كيلو من الموالح نشترك فيه ونحن نقرأ الرواية سويّة، وفي آخر الشهر أصحبها لتناول الفلافل على نهر دجلة.

جرّبتْ تمارا البحث عن وظيفة وفشلت، فاستسلمت مع أول محاولة وآثرت البقاء في البيت. الكثير من صديقاتها فعلن الأمر ذاته، فسوق الوظائف كان مثيرًا للضحك: بكالوريوس مسرح، موظف أرشيف.. يا للروعة!

عدت ذات نهار من العمل، فوجدت المطر يحاصر زوجتي من كل حدب وصوب. كانت جالسة على السرير باكية، والماء يدخل عليها من الشارع والسقف ومن أطر النوافذ غير المحكمة الإغلاق. الأرض فائضة والكراكيب غرقى، والأريكة اليتيمة غاطسة حد المنتصف. نعل تائه جاء يسبح من جهة المطبخ، ودفاتر وكتب سقطت من الرف وتشرّبت بالماء حتى طفت فوق سطحه.

«غرقنا يا عزيز.» قالت بنبرة فزعة، ممسكة ببطنها المنتفخ جراء الحمل. وفي الأثناء جدح المصباح المعلق أعلى الحائط، فصرخت ويدها على خدها:

ـ عزيز!

ـ لا تخافي حبيبتي، هذا المطر.

ثم حثثتها على التجهّز من أجل الرحيل.

لم أكن أملك حلًّا سوى النزوح إلى مكان آمن، وقد دار في خلدي بيت خالي جبران. لا أريد العودة ذليلًا إلى بيت العائلة، كما لا طاقة عندي على احتمال نظرات التشفّي في عينَي أخي صبيح، الذي لم يكن راضيًا على تلك الزيجة، بل لم يكن راضيًا عنّي بالمجمل.

ـ خذني إلى أهلي.

قالت تمارا، فأجبتها بحزم:

ـ لا، سنذهب إلى بيت خالي.

وجلبت لها العباءة من الخزانة التي غرق أسفلها هي الأخرى. لكنها صرخت ثانية: «عزيز..» وكانت يدها هذه المرة على بطنها!

كان ثوبها مخضبًا بالدماء، وفي عينيها فزع الكون. لففتها بالعباءة وحملتها إلى المشفى، لتدرك هناك أنها لم تعد حاملًا. نزلتُ عند طلبها، وحالما حل المساء وسمحت لها الطبيبة بالخروج صحبتها إلى بيت أهلها.

طرحتُها على السرير وأسندت رأسها بوسادة إضافية، ولم أطل المكوث، فرياح اللوم بدأت تهب من جهة عمّتي العزيزة. خرجت صوب حانة السحاب، شربت كأسين مخلوطين بالحسرة، ثم ذهبت إلى بيت خالي جبران نازحًا لزّه الضياع والمطر.

- 13 -

لست سكّيرًا، وحقّ اللّٰه لست سكّيرًا، ولولا عراك آنف كان قد نشب بيني وبين أخي صبيح ذات يوم، لما تعرّفت على طعم الخمر.

كنت آنذاك طالبًا في المرحلة الأولى من الجامعة، وكان صبيح عريفًا في مدرسة الدروع بتكريت، يأتي سبعة أيام من كل شهر. لكن مزاجه السيء وزعيقه المستمر يجعل منها سبعة أعوام. ففي كل مرة يفتعل شجارًا ويصبّ حميم غضبه على زوجته الأولى، يعنّفها بالصفع والشتائم والبصاق، فتقابله بالصبر والتأسّي.

في ذلك اليوم كان قد رفع من منسوب القسوة، وجلدها بالحزام غير عابئ ببكاء أطفالها ومحاولات أمي لحمايتها، فأمسكتُ به بغية إيقافه، إلا أنه نطحني كالثور الهائج.

كانت لكمة قاسية تورّمت لها عيني، فدفعتُه من صدره وسقط. وقف من جديد وهمّ بجلدي. احتملت الجلدة الأولى، وفي الثانية حالت بيننا أمي قبل أن يُغمى عليها. خرّت مغشيًّا عليها، واجتمعنا حولها ندلّك صدرها ونرشّ وجهها بالماء.

حتى هذه اللحظة لا أدري إن كان إغماؤها ذاك صادقًا أم مشهدًا تمثيليًا

لحل النزاع، غير أنها نجحت في وضع حد لهيجان أخي، وهذا ما يهمّ في المسألة.

أفاقت واجتمعوا حولها، هو والصغار والزوجة الثانية التي بالغت في ذرف الدموع، بينما لم أحتمل من جهتي أجواء الكذب الخانقة، فغادرت المنزل. سرتُ في الطريق لا ألوي على شيء، ومن دون تخطيط وجدتني أقف على باب الدكان في آخر المحلة وأطلب علبة سجائر. دخّنتُ بلا توقف، وعندما جنّ الليل قصدت بيت خالي جبران في محلة الشواكة.

استقبلني بدهشة السؤال عما جرى لعيني، لكني قاطعته قائلًا:

ـ خالي، عندك واين؟

ضيّق إحدى عينيه ورفع الأخرى وقال:

ـ من أين آتيك بالواين في هذا الليل؟

ـ لا أدري! أريد أن أشرب.

ـ ستشرب ستشرب، ولكن الواين لا ينفع ولا يدفع.

ـ ماذا تقصد؟

ـ الواين مشروب أرستقراطي تافه، يُشرَب في الصالونات من أجل البريستيج لا أكثر. أنت واقع في مشكلة، هذا واضح من عينك، ولا يبدد همّك إلا العرَق.

ـ لكنهم يقولون إنّ العرَق يعطّل الكبد.

ـ أغبياء ولا يفهمون في الشراب. تعال اجلس ودع الأمر لخالك، سأعمّدك كما ينبغي.

ثم أدخلني إلى الصالة وذهب إلى المطبخ يعدّ المزّة، فهو أعزب ووحيد.

كان يحلو له وصف نفسه بآخر عزّاب بغداد. يؤمن بمشقة الزواج، ويردد مقولة مالك بن دينار، كلما سئل عن سر عزوفه عن الزواج: «لو استطعتُ لطلّقتُ نفسي.» صحيح أنه يعشق النساء، بل يمكن الزعم بأنه من ذلك النوع الذي «يمشي ويحبّ»، غير أنّ حديثَ الارتباط يعكّر مزاجه ويصيبه بالجزع.

لم يكن راضيًا عن قرار الزواج الذي اتخذتُه، ولم يوفّر آنذاك نصيحة إلا قالها:

ـ بني، الزواج متاهة لستَ مضطرًّا لدخولها.. الزواج ورطة كبيرة، احذر منها أرجوك..

وعندما شعر بالعجز عن كسر عزيمتي قال:

ـ سيأتي اليوم الذي تعضّ فيه أصابع الندم.

ـ ما هذا الكلام يا خال؟! هل كل من تزوّج ندم؟! أرجوك لا تعكس تجربتك على الآخرين.

ـ تجربتي؟! متى كانت لي تجربة في الزواج لأعكسها؟ تعلَمُ جيّدًا أني لم أتزوّج. كانت خطوبة وانتهت.

ـ إذن كيف عرفت أن آخر الزواج ندم؟

ـ ممن حولي، استقراء، ألم تسمع بالاستقراء من قبل؟ كل المتزوجين يبكون ويشكون.

ـ هذا ما يُدعَى بالاستقراء الناقص، أليس كذلك؟ أم أنك طرقت أبواب المتزوجين بابًا بابًا؟

ـ كما تحب. أنا قلت ما عندي. على الأقل ليس الآن، أجّله حتى تكون جاهزًا، وإلا ستكسر ظهرك بيدك.

ـ شكرًا للنصيحة.. أراك على خير.

رميت كلامه في النهر ومضيت حينها، لكن ذلك لم يقف أمام حضوره حفل الخطوبة فالزفاف، بل لم يمنعه من تقديم النقوط لي ولتمارا، مع ثلاث هدايا من أجل البيت: أريكة، وثلاجة، وكارتون كتب.

أكمل آنذاك عمله في المطبخ وفرش السفرة مردّدًا: «سأنسيك الهم والغم، فقط سلّمني نفسك.» وضع الكؤوس والأطباق، وذهب إلى جهاز الغراموفون، الرابض على منضدة أنيقة تجاور رف الكتب. اختار أسطوانة وأنزل المسمار، فدارت أغنية «أضنيتني بالهجر.» وقرعنا الكؤوس بصحة الأطرش.

ـ خالي، من أين تأتي بهذه الأسطوانات؟

ـ من سوق هرج طبعًا.

ـ عندهم أسطوانات الغزالي؟

ـ عندهم الغزالي نفسه إن كنت تريد.

ـ عاش العراق.

كانت سهرة لا تُنسَى، أفرغت فيها حصّالة الهموم وبكيت حد الضحك. لقد شكوت لخالي جبران، الذي أنصت بقلبه قبل سمعه، ما جرى بيني وبين أخي، وتجاذبنا رفقة الكأس أطراف الحكاية. كان يحتسي على مهل ويوصيني بذلك: «على مهلك، لذة الشراب في التمهّل.» وعندما ثقل رأسي واستحال عليّ الكلام بلسان مبين، أسندني على الأريكة ودثّرني بغطاء معفّر برائحته. توالت بعد ذلك السهرات، غير أنها ظلت حبيسة المنزل، حتى اهتديت إلى حانة السحاب في شارع السعدون.

ـ 14 ـ

بعد عشرين يومًا من النزوح في بيت خالي جبران، اكتملت التصليحات وذهبت لاسترجاع تمارا، لكني تفاجأت بما رأيت. كانت زوجتي شبه ميتة، وكأن من أجهضته قلبها! جفونها حمراء لكثرة البكاء، وأثر الصوم بادٍ على سحنتها. وقفت أمامها ذاهلًا لا أجد ما أقول. المصاب مصابي كذلك، إلا أنه ليس بالمصاب الجلل على أية حال، سنعيد الكرّة، أين المشكلة؟!

ـ تمارا..

قلت، فقاطعني العم:

ـ اتركها الآن يا ابني.

ثم صحبني إلى غرفة الضيوف وعاود اقتراحه الآنف:

ـ سأفرغ لكما واحدًا من البيوت، وادفعا لي ما تدفعانه لإيجار بيتكما.

ـ شكرًا يا عم، اللّٰه يديمك، لكنك تعرف رأيي.

ـ بني، أنا لا أتصدّق عليك، هذا إيجار وذاك إيجار، لماذا أنت عنيد لهذه الدرجة؟!

ـ آسف يا عم، صدّقني أنا مرتاح هكذا.

ـ لكن تمارا غير مرتاحة، ألا يكفي ما حصل؟

ـ تمارا زوجتي ومسؤولة مني.

وفي الأثناء فُتح الباب ودخلت العمّة العزيزة لتنصب محكمتي، ألقت عليّ تهمة القتل العمد؛ «أسكنتَ ابنتنا في خرابة وقتلتَ طفلها.» وراحت تملي شروط العودة، وما دونها الطلاق: «بنات الناس مو لعبة بيدك.»

حاولت قدر المستطاع الاحتفاظ بأعصابي باردة، ثم غادرت بصمت ولم أعد إلا في الأسبوع التالي.

كانت تمارا قد أنهت صومها، وعاد الدم ليجري في عروقها أخيرًا. أوصلت لها سلام خالي جبران، وقدّمت لها هديته؛ كتاب تأملات في الإنسان، ثم جلست أحكي لها آخر النكات بصوت منخفض علّها تضحك. غير أنها لم تضحك ولم تعلّق، فقلبها لم يزل منكسرًا بقصة الفقد. عندئذ زعق صوت المكنسة الكهربائية، وجاءت العمّة تكشّ الأرض من حولنا، وكأن وسخًا اجتاح المنزل بقدومي! نهضت وقلّدت مشيتها بعدما خرجت، فابتسمت تمارا وشكرت اللّه على فضله.

«تعالي، نذهب إلى بيتنا، لقد أصلحته، وسيقطع صاحب الملك ثمن التصليحات من الإيجار» قلت وأنا أفرك أصابع يدها. «سنصنع سامرًا آخر، يللا يا روحي.» فدمعت عيناها، وأطرقت. ثم ذهبت

وغسلت وجهها لتشرع بعد ذلك بلمّ الأغراض تجهّزًا للرحيل. «خير إن شاء الله!» هتفت العمّة معترضةً، وعاودت التجريح.

ـ حبيبتي، أنتظرك في الحديقة.

قلت لتمارا وخرجت.

أشعلت سيجارة في الممر الطويل تحت عريشة العنب، وليس في رأسي فكرة عما سيحدث. قد تأتي زوجتي، أو تبدّل رأيها، كل شيء وارد. لكنْ، وحالما أنهيت السيجارة، جاءت. أطلّت مرتدية معطفها القصير، وشمس الشتاء تغازل شعرها التمريّ اللامع. كانت حزينة، إلا أن خطواتها بدت سريعة وكأنها تريد الخلاص من سياط اللوم التي تصيبها هي الأخرى، فكلانا مشترك في جريمة الزواج المتعثر تلك.

مازحتها وهي مقبلة:

ـ كنت أعرف أنك لا تستغنين عن عزيز بن الملوّح يا تمارا العامرية.

فقالت بخجلها المعتاد:

ـ إششش.

آه كم تهيّج قلبي هذه الـ«إششش»! كانت إشٌّ تمارا ليست ككل الإشّات في العالم، إذ فيها من الرقّة ما يفوق منطق البلابل في بساتين النخيل.

ثنيت لها ذراعي:

ـ هلُمّي بنا إلى الجنة يا حبيبتي.

فتعلّقتْ بي مرددة:

ـ أبو خشم، جوز من الكلاوات.

وهذه جملة لا تقولها إلا عاشقة. أجل هكذا هو الأمر دائمًا؛ إذا عشقتك المرأة مازحتك. أما إن عابت شكلك، فاعلم يا حمار أنك في عينها غزال أهيف. لهذه الأسباب تجد العاشق، مهما كان دميمًا، واثقًا بنفسه.. الحب سبب رئيس للثقة بالنفس.

عدنا إلى المنزل، واستلقت تمارا على السرير وتدثرت دون أن تخلع معطفها، بينما دلفت أنا إلى المطبخ كي أحضر المدفأة. كانت فارغة، أخرجتها إلى الفناء وملأتها بالنفط، ثم أشعلتها وأدخلتها إلى الغرفة. تلحّفت مع تمارا لاكتساب الدفء ريثما تتوهج المدفأة وتقوم بدورها المأمول. أدرت يدي على خصر زوجتي العائدة، وكانت تنظر في صورة زفافنا المعلقة على الحائط. شممت شعرها وقبّلت قفاها، وفي الأثناء قرقرت بطنها وضحكنا.

كان النهار قد ولّى، ومؤذن الجامع بدأ برفع أذان المغرب. تركتها تنام، وخرجت إلى المطبخ لتحضير العشاء بعدما أبدلت ثيابي.

قطّعت الباذنجان والبطاطا والطماطم، ورششت عليها الملح، ثم أشعلت الطباخ ووضعت المقلاة على النار. سكبت فيها الزيت وقلّيت الأقراص المملحة. بدأت بالبطاطا ثم الباذنجان، الذي

شرب الزيت كأنه فيل عطِش، وفي النهاية الطماطم. تناولت الصحن الفرفوري الأبيض من السلة، ورتّبت فوقه أقراص المقليّات على هيئة دوائر متعاقبة؛ دائرة سوداء، في بطنها صفراء باهتة، في بطنها حمراء. أما القلب، فأبقيته فارغًا للبيض.. البروتين ضروري لتمارا.

كسرت أربع بيضات وقلّيتها بزيت جديد، ثم سكبتها في المنتصف. على العين الثانية كان إبريق الماء يستغيث. سكبت فيه ملعقتين من ورق الشاي مع حبة هال، وأخفضت النار ليهدر. رفعت الصينية الفافون المتكئة على أسطوانة الغاز، ووضعت عليها طبق المقليات وطبقًا للزيتون وآخر لشرائح الخيار المملحة، وها هو الشاي قد اختمر.. ما أشطرني!

جهز العشاء ولم يبق سوى إيقاظ تمارا. أخرجت كيس الخبز من الثلاجة وأفردت الأرغفة على المدفأة، وأنا أردد: «تمره، تمارا، حبيبتي.. العشا جاهز.» ثم جلبت صينية الطعام وجلسنا في الأرض نتناول العشاء.

خرجنا إلى الصالة بعد ذلك وشاهدنا فيلم «اللعبة»، وقد ظلت تمارا طوال الفيلم مختبئة بين جوانحي، تسترق النظر إلى الشاشة، ومع كل لقطة رعب تصرخ وتحضنني.

تذكرت وأنا أمسد شعرها وأهدئ من روعها قول خالي جبران: «الزواج عمل شاق»، فابتسمت وقلت في سري: «بل هو أكثر مشقة

مما ينبغي.. بدليل أن عليك حماية كائن لطيف كهذا ضد خطر يداهمه من وراء الشاشة!»

انطفأت الكهرباء وانسللنا إلى الفراش، لكني لم أقترب كثيرًا فـ«اللمس ممنوع» حسب وصايا الطبيبة.. عانقتها ونمنا.

- 15 -

لقد ظل الحذر واجبًا حتى اجتازت تمارا الأمر تمامًا واستعادت أمنها، فعاود محرّك الأمل بحبل جديد الدوران ثانية. لم يكن حبلها سهلًا، غير أنها مصرّة على الإنجاب. وفي النهاية استجاب القدر لدعواتها وحبلت.

في ذلك اليوم، كنا جالسين في مختبر التحليلات الطبية، بانتظار النتيجة. وقد أصرّ المحلل ذو الروب الأبيض على أن يغلق المظروف بلسانه عملًا باللوائح. «ستخبركم الطبيبة بالنتيجة» قال وهو يمد يده بالمظروف الأسمر. «خمسة آلاف.»

دفعنا المبلغ وارتقينا السلّم إلى عيادة الطبيبة التي تقع في الدور الثاني من العمارة ذاتها. كان ذلك الارتقاء، بالنسبة إلى تمارا، بمثابة العروج إلى القيامة؛ إما الجنة أو النار.. إلى هذا الحد! كانت تضع يدها على قلبها، وتشدّ على زندي بشدّة، وما بين شفتيها قرآن يُتلى. على تلك الحال كانت حتى أخبرتها الطبيبة بقرار الله: «أنتِ حامل.» فاستبشرت وتعالت صرخاتها فرحًا هذه المرة: «دُبّ لُبّ.. دُبّ لُبّ.. دُبّ لُـ.. دُدُدُدُدُدُ..» غمرتُها بكلتا يدَي خشية أن تموت: «مبروك حبيبتي مبروك.. اهدئي حتّى لا يتوقّف قلبك.» استعادت هدوءها

بعدئذ، غير أنها ظلت، على طول الطريق بين العيادة والمنزل، تحتضن المظروف وكأنه صك الفردوس!

أما أنا، فكنت سعيدًا من أجلها وحسب، إذ يعز عليّ إيجاد مبرر للإنجاب والحال تلك. سأورّط معي مخلوقًا جديدًا، وذلك ما كنت أخشاه وأخافه. لو امتلكت الحد الأدنى من القدرة على إسعاده، لما تردّدتُ في إنجابه.

شيّعتني في صباح الغد إلى الباب:

ـ ترجع بالسلامة، عيني أبو سامر.

لفرحها، قررت أن يكون الجنين ذكرًا ومنحته اسمًا رغم أنها ما تزال في السطور الأولى من الحمل!

مسكينة، لا تدري أن (أبو سامر) على موعد مع حماقة جديدة من شأنها أن تطيح بالفرح من عليائه وتعبّد الطريق نحو الخيبة.

- 16 -

لم يكن عملي في أرشيف دائرة الفنون مجديًا. ما يصلني منه في آخر كل شهر ليس جديرًا بالاحترام في الواقع. فهنالك إيجار البيت، والمواصلات، والخبز، والسجائر، وهنالك طفل قادم!

الكثير من زملائي كانت لديهم مصادر دخل جانبية يداوون بها عسر الحال ويرممون فداحة أن تكون موظفًا حكوميًا في زمن الحصار. لا سيما أولئك المخضرمين، العائلين بنصف دزينة من البنين والبنات. بعضهم يقود سيارة أجرة بعد أوقات العمل الرسمية، وبعضهم يعمل سكرتيرًا في عيادة طبيب، وبعضهم صبّاغ بيوت في أيام الجُمَع والإجازة، بينما استغنى بعضهم عن حديقة بيته أو غرفة ضيوفه وأحالها بقالة تجتذب نسوة المحلة وصغارها. المهم في الأمر أنهم مرتفعون فوق خط الفقر بإصبعين أو ثلاثة.

أنا المفلس الوحيد في القافلة، والمجرد من أي مصادر دخل جانبية. لهذا وذاك وجدتني متمسكًا بوظيفة بائسة على أمل حدوث معجزة تحث الإدارة على إصدار قرار بترقيتي.

في ذلك الصباح، وصلتُ وفمي يصفّر لحنًا أثار دهشة زميلي في

غرفة الأرشيف. كان نشيدًا حماسيًا طالما بثّه التلفزيون العراقي أيام الحرب:

مرحبًا يا معارك المصير

مرحبًا يا عوادي الزمن

شعبنا العريق منّزق الكفن

وهبّت الجموع تقارع المحن

مرحبًا مرحبًا

يـــــا معارك المصير

وقد حفظناها منذ أيام الصبا، مذ كانوا يقطعون علينا «مغامرات السندباد» بغية إذاعة بيان عسكري. يخرج مذيع الأخبار بملامحه القاسية ليقرأ بيانًا عن معركة نفضت للتو غبارها، معلنًا النصر التام دون خسائر تذكر. ثم تظهر صورة الجنود ملوّحين بعلامات النصر من على متون الدبابات مع نشيد «مرحبًا يا معارك المصير.»

ـ خير؟! معارك المصير، اليوم؟!

تساءل زميل الأرشيف الطيّب، فأجبته:

ـ حياتنا كلها معارك، أبو ليلى الحبيب.

ـ يا ستّار! لكن واضح عليك الفرح، فرّحنا معك.

ـ والله، الظاهر أني سائر نحو حتفي.. المدام حامل.

ـ ألف مبروك، هذا خبر عظيم، أحلى شيء بالدنيا الأولاد.

ـ بشرط ألا يكونوا حطبًا لمعارك المصير.

ـ صوتك، لا تحبسنا يا معوّد.

ـ سكتنا، المهم، ما أخبار الشاي؟

ـ سبقتك وشربت.

ـ لا ضير لا ضير، تشرب مرة ثانية.. الشاي مفيد للمزاج والبدن، ويقلل من تساقط الشعر لدى الرجال.

ذهبت إلى المطبخ وجلبتُ قدحَيْ شاي، ثم كان عليّ استنساخ بعض الأوراق، فحملتها ومضيت نحو جهاز الاستنساخ الكبير الرابض في القاعة الرئيسة على يمين الباب. ألقمته الأوراق ونقرت على زر النسخ، لتدور الأتراس في بطنه مصدرةً بذلك صوت المكننة المثير للإعجاب. وفي الأثناء دخلت زائرة ترتدي فستانًا أصفر ضيقًا بالكاد يشد لحمها. كان وجهها مدفونًا تحت سبع طبقات من مساحيق التجميل، وشعرها الكستنائي كثيفًا كالغيمة. نظرت لي باشمئزاز وقالت دون تحية:

ـ أين مكتب الأستاذ رافد؟

ـ أجبتها:

ـ الطابق الثاني.

ولو أني اكتفيت بذلك الجواب المقتضب، لما حدث ما حدث!

ـ من هنا، تفضّلي معي.

وضعت ما في يدي وسعيت في إرشادها إلى مكتب المدير، الأستاذ رافد. لكنها بدت لئيمة إلى الحد الذي يجعل خدمتها ضربًا من الحماقة. إذ عندما أومأتُ لها سارت أمامي متقدمة بخطوتين وكأنها هي الدليل وأنا المريد، وعندما قطعنا القاعة واقتربنا من الدهليز الموصل إلى الدرج، انزلق الجزدان من يدها، فطأطأتْ لالتقاطه وانفتق فستانها من الخلف.

فتق الفستان لم يكن الكارثة، بل تمزق ستار الضحك لدي هو ما قلب موازين الكون لدى الزائرة وجعلها تستشيط غضبًا. لقد ضحكتُ دون قصد والله، وبالرغم من أني سارعت للاعتذار، إلا أن كل شيء قد تدهور في النهاية بسبب ما أقدمتُ عليه بغية إصلاح الموقف. فقد جعلتُ من يدي حائطًا يستر مؤخرتها المنكشفة جراء الحادث. حركة بريئة فعلتُها بحسن نيّة، لكن عويلًا تصاعد في الأثناء ليثبت أن السلوك البريء حمقٌ في زمن التهمة، وحُسْنَ النوايا لا ينفع ما دامت القلوب مغلّفة بالضغينة.

هكذا أنا: كلما حاولت إصلاح المواقف، انفجرت بوجهي كالبالون!

لقد غضبت المرأة وأطلقت في الهواء خرطوشًا من الشتائم وكلمات التهديد، فتوقف المراجعون والموظفون عن شؤونهم وأداروا نحونا دفة الفضول. رأيت أحدهم قد طأطأ رأسه وانسحب بهدوء، وآخر هزّ رأسه ضجرًا أو أسفًا لا أدري وغادر. بعضهم اكتفى بالفرجة، وبعضهم همس بكلمات وهو يراقب انفعالات الزائرة الغاضبة.

حاولت تهدئتها، لكن دون جدوى، فقد ظل إيقاع الغضب يتصاعد إلى حد أنها تعهدت أمام الملأ بتكسير رأسي: «إذا ما كسّرت راسك، اتفل بوجهي.» ولو هدأت قليلًا لأخبرتها بأن شرطها فائض عن الحاجة، فلست ممن يبصقون في وجوه الرجال فضلًا عن النساء. وإن كان لا بد من وجه للبصاق، فأبصق على وجه النحس الذي يرافقني. غير أنها رحلت وتركتني وحيدًا ألوك الندم على ضحكتي.

سأخسر رأسي، فأمثال هذه المرأة المتغطرسة لا يهددون عن فراغ، ولديهم قدرة فائقة على تنفيذ تهديداتهم. طلبني المدير بعد ساعة تقريبًا، وأبلغني بأني موقوف عن العمل حتى إشعار آخر.. اذهب الآن، سيجتمع المجلس ويتخذ بحقك قرارًا.

ـ 17 ـ

كانت صدمة يعز استيعابها، فما زلت أظن بأني لم أفعل ما يستحق الإيقاف عن العمل، وما زلت أجهل من تكون تلك المرأة!

عدت إلى المنزل ولم أفصح عما جرى. داومت على الخروج كل صباح والعودة بعد الظهيرة، وما بين الصباح والظهيرة كنتُ أزجي الوقت في المقهى رفقة صديقي مهند، الذي ما زال عاطلًا عن العمل. كان يفكر في الهجرة مرددًا: «لا عمل، لا زواج، لا استقرار، ما نفع الوطن؟!»

ابنة عمته التي افترش الأرصفة وباع الأفلام الثقافية والبيبسي لأجلها، رحلت. خطبها طبيب يعمل معها في المشفى، ومن دون تردد وافقت العمّة اللعينة، وحددوا موعد العرس.

ـ ولمياء، ماذا قالت؟

سألته، فرد بأسى وحسرة:

ـ لمياء، آه لمياء!

ـ يعني؟

ـ راضية طبعًا، كتبت لي رسالة تقول فيها: «أتمنى لك التوفيق بحياتك، أمانة عليك أتلف رسائلي.»

ـ آه!

ـ إي والله.

سيركب صاحبي الحافلة إلى عمّان ومن هنالك يفرجها اللّٰه.. هكذا قال. لكنه لا يدري كيف يفعلها، إذ لا يملك جواز سفر، وإن رام الحصول عليه، فليس بالأمر الهين. أشعل سيجارة ونفخ همّه، ثم توجّه لي بالسؤال عما يشغلني، ولمَ أنا هنا، لا في الدائرة. أخبرته بسرّي، فقال دون اكتراث بمشاعري:

ـ أبشِر، سيتم فصلك.

ـ اللّٰه يبشرك بالخير.

ـ لا تزعل يا صديقي، المسألة واضحة مثل الشمس؛ أنت لعبت بمؤخرة غيرك، ومن يلعب بمؤخرة الغير عليه تحمّل النتائج.

ـ ما لعبت بها، وحق هذا اللّٰه الفوق راسي ما لعبت بها، وروح أبوي ما لعبت بها..

ـ صوتك يا معوّد فضحتنا.. خلص، ما لعبت بها، لكنها أعجبتك، لا تنكر ذلك.

ـ خرا بشرفي إذا أبقى دقيقة.. أنا حمار لأني أشكي لك.

ـ اقعد يا رجل، أمزح معك، ثم من يدفع الحساب إذا ذهبت؟ اقعد.

انقضت بقية الأسبوع في التسكع من بعدُ، وذهبت إلى الدائرة بغية معرفة القرار النهائي، فصدق حدس مهند. قال معاون المدير إن مجلسًا تأديبيًا قد تشكل بحقي وتم اتخاذ قرار بالفصل من الوظيفة لأسباب أخلاقية.

بعدما انتهى قال:

ـ احمد ربك أنها انتهت بالفصل.

ـ لماذا؟ هل قتلت قتيلًا وأنا لا أدري؟

ـ لا، ولكن هل تعرف من تكون الزائرة؟

ـ لا والله. من تكون؟

أدنى رأسه وقال بصوت مبحوح بالكاد يُسمع:

ـ صديقة واحد من حماية الأستاذ.

رددت بنبرة مماثلة:

ـ أي أستاذ؟

فسكّ أسنانه وردد من خلفها:

ـ الأستاذ..

ـ آه، فهمت.

ـ المهم، لا تخبر أحدًا أني أخبرتك، دع المعلومة بيننا. أنت شخص محترم وأعلم أنك لم تقصد التحرش، لكن ماذا نفعل، هذا حظك!

كان شخصًا طيبًا على أية حال، وقد أبدى التأثر لأجلي. «أجل، هذا حظي.. أتعلمني به!» قلت في سري، ومضيت أسِفًا على ما حلّ بي.

وفي الواقع فإني لستُ أسِفًا على فقدان وظيفة لا يصمد راتبها إلى آخر الشهر، بل على خروجي منها مشيّعًا بالعار. سرت في الطريق حانقًا أحوك مرافعة وهمية مع أعضاء المجلس التأديبي. وقفت أمامهم بثبات وشموخ قائلًا:

ـ أيها السادة، أنا لم ألمس هذه المرأة، ولم أدن منها، كل ما فعلته الضحك ومحاولة ستر مؤخرتها المنكشفة جراء الحادث.

رد الشخص الجالس على رأس المجلس وكان مغرورًا وسافلًا:

ـ انتهيت؟ حسنٌ، اطلع واغلق الباب وراءك.

ثم أسمعني كلامًا جارحًا ويده تشير نحو باب القاعة علامة طرد مهينة:

ـ هذا المكان لا يليق بالمتحرشين أمثالك.. اطلع.

شعرت أنه اغتصبني بلسانه السليط ذاك، فشتمته:

ـ من تظن نفسك يا ساقط؟

ـ أنا ساقط؟ سأريك.

كبس على زر جانبي وراح ينادي الأمن، فتماديت:

ـ قندرة عليك وعلى الأمن.

دار من خلف مكتبه وتقدّم نحوي غاضبًا، فلكمته على أنفه، ثم صفقت الباب وخرجت منتصرًا.

لله درّي ما أشجعني في الوهم!

اعترضني رجل الأمن، أوقفته عند حده قائلًا:

ـ قف عندك، لن تخيفني، لا أنت ولا الأكبر منك.

شتمته وشتمني، ودار عراك كبير. ولأن العراك لدينا لا يكتمل دون أزيز الرصاص، أشهر اللعين المسدس وأطلق رصاصة، استقبلتها بصدري ونزفت حتى لقيت حتفي.

كان منظري وأنا مستلق على الأرض، والدماء تسري من تحتي وتنتشر، قد أثار في نفسي الفزع، فجمدت وسط الطريق وكاد أحدهم يدهسني. كانت شاحنة مسرعة وقد كبس سائقها على الزامور، فخرس صوت الوهم.

- 18 -

تنفست الصعداء أني لم أُدهس، وأكملت عبور الطريق سالكًا جادة اليمين. داهمتني رغبة شديدة في التدخين، وفوجئت بعلبة سجائري فارغة، فاندفعت نحو كشك عند الناصية، واشتريت علبة أسبن أحمر. أشعلت واحدة وسرت أدخّن تحت الشمس حتى كدت أنصهر.

لكنْ، لماذا أنا غاضب لهذا الحد؟! ولما العجب في بلاد العجب؟! قبل بضعة أشهر تم حبس وتعذيب مطرب لأجل أغنية. مطرب تغزّل بالسمراوات قائلًا: «على عناد البيض غنّن يا سُمُر..» فاشتكته عاهرة بيضاء تنام في سرير الأستاذ، ليرسل الأخير في طلبه ويلقيه في السجن.

وصلت المرأب العام، وركبت الحافلة شبه الممتلئة. في الخانة الأخيرة أسندت رأسي على الزجاج منصتًا لبرنامج طلبات المستمعين المبثوث من المذياع. كانت المذيعة بصوتها الدافئ تقرأ الإهداءات، لتختم اللائحة بالقول: «أترككم سادتي المستمعين مع أغنية (عزيز)، وهي من كلمات الشاعر عزيز الرسام، وألحان وغناء الفنان مهند محسن.. أطيب الأوقات.»

عزيز بس بالاسم
ومدلّل بحزني

والمشكلة مو بالاسم
وهذا اللي كاتلني

ضحكت في سري وشتمت كل عزيز، بمن فيهم عزيز مصر. ثم ترجلت وأكملت الطريق سيرًا نحو مكتبة خالي جبران؛ ملجئي الوحيد في هذا الكون التعس. لكن خالي لم يكن آنذاك وحيدًا، بل محاطًا بالأصدقاء كما جرت العادة. ألقيت التحية وجلست على تل الكتب الصغير، فانتبه لحالي وبادر:

ـ ما بك؟!

ـ ما بي؟ لا شيء.

ـ وجهك محتقن!

ـ من الشمس.

كرر خالي السؤال عما يزعجني، فغمزته خشية أن تكون شؤوني مشاعًا لضيوفه، لا سيما وأن فيهم من لا أطيقه.

كانوا ثلاثة؛ نحّات يفوق عمره السبعين عامًا بذقن أبيض يشبه ذقن همنغواي، ومكتبيّ متقاعد، وكاتب لا أطيقه. روائي مخلوق من طين وغرور، يتكلم بطريقة غريبة فيها مزيج من التباهي الذكوري والغنج الأنثوي، ولا يكف عن قص مغامراته الجنسية. فوق هذا كان ماكرًا في نفخ الذات، إذ لا يتحدث عن نفسه كما جرت عادة المثقفين عندنا، بل يطلق النار على منافسيه واحدًا تلو الآخر، لتكون النتيجة: أنا وحدي وما دوني سقط المتاع.

ذات مرة سألت خالي جبران عنه:

ـ لماذا تصاحب هذا السفيه يا خال؟

فقال:

ـ حفاظًا على حياته.

وأردف موضّحًا:

ـ ينتحر السفهاء حين لا يجدون من يصغي إليهم.

ـ وما شأنك إن عاش السفهاء أو ماتوا؟

ـ وجود السفهاء ضروري في حياتنا، إنه يجعلنا أكثر ثقة بأنفسنا.

أتذكر حينها أني هززت رأسي مؤيدًا، وفي قلبي غبطة لطاقته على التحمل.

مدّ حضرة الروائي يده والتقط كتابًا معروضًا على المنضدة. كانت مجموعة قصصية لكاتبة شابة. قرأ كلمة الغلاف وأعادها مكانها، ليتوجّه نحو خالي بالسؤال:

ـ حلوة؟

ـ لا بأس بها، لغتها جيدة و..

قاطعه:

ـ أقصد الكاتبة.

ـ آه، الكاتبة! نعم حلوة، لكنها متزوجة.

ـ هذا أفضل، لديها خبرة.

هكذا علّق السفيه ضاحكًا، قبل الشروع في الثرثرة عن الأدب النسوي وما أنتجته حركات التحرر العالمي من ثورة في هذا النوع من الآداب.

كان متحدثًا لبقًا في الحقيقة، لكنه ساقط وابن كلب.

تململ الجالسون، وقد شعر خالي بذلك، فقطع سلسال الكلام بالسؤال عما يودون شرابه. توحدت الكلمة على الشاي، فنهض ليطلب الشاي من المقهى.

«استرح خال، أنا أطلب.» قلت وخرجت. رأيت صبيّ المقهى على الرصيف يوصل طلبًا، فأشهرت له أصابع يد واحدة. وحالما جاء بالأقداح، أخرج خالي من الدرج كيس الزبيب وفرشه على المكتب أمام ضيوفه.

لا تخلو أدراج خالي جبران من الزبيب، إذ يعتقد اعتقادًا راسخًا، لا أعرف منشأه، بأن تناول تسع حبّات من الزبيب كل يوم يطيل في عمر الرجل ويقيه تسعة أمراض أقلها فتكًا سرطان البروستات. وإن أبديتَ رأيًا مناهضًا لاعتقاده الغريب هذا، حرمك من مشاركته الزبيب مرددًا: «إذا مددت يدك، أقطعها.»

شربوا الشاي مع الزبيب ورحلوا، وبقيت وحيدًا في حضرة خالي جبران، الذي عاود السؤال:

ـ والآن، ستقول ما بك أم لا؟

ـ لا شيء يا خال، صدقني.

ـ لا تختبر صبري يا عزيز، ماذا حصل؟

ـ تركت العمل.

ـ أوه، لماذا؟

لم أشأ إخباره بأنهم استغنوا عن خدماتي وبتّ مفصولًا من العمل لأسباب أخلاقية. لا أرغب بإشراكه خيبتي كل مرة.

لا بد أن يبقى الشعور بالخيبة فرديًا بعض الأحيان، فمن الأنانية أن نثقل على من نحب بسوء ما نشعر دائمًا.. لذلك أحجمت عن إكمال ما بدأت، وشنقت الحقيقة بحبل المزاح:

ـ لأنه عمل تافه، لا يناسب أحلامي.

ـ آه، وما هي أحلامك سمو الأمير؟

ـ أحلم أن أكون طيارًا مثل أبي.

ـ على حد علمي، المرحوم كان مزيّت قطارات!

ـ أقصد كان يحلم أن يكون طيارًا.

قهقه خالي جبران، وفهم الأمر من عنده، فعلّق:

ـ طردوك! لا تزعل. من الآن اعتبر نفسك مدير المكتبة.

- 19 -

يعلم خالي جبران رأيي؛ لن أشاركه رزقه مهما حصل. منذ الصباح لم يبع كتابًا واحدًا، هذا ما فلت على لسانه. لقد عزف الناس عن دخول المكتبات وغدت القراءة ضربًا من الرفاهية، لا أحد يضحّي بقوت يومه من أجل كتاب، فإن قال قائل القراءة غذاء العقل، ردوا عليه: أغلق فمك، نحن جائعون. هذا ما كان عليه الحال في سنوات الحصار. ولولا أن لخالي جبران راتبًا تقاعديًا ودكانًا في سوق الشواكة يدرّ عليه إيجارًا شهريًا، لأغلق المكتبة أو حوّلها مقهى على الأقلّ.

هممت بالاعتراض، فأبدل الحديث برشاقة قائلًا:

ـ دعنا من الكلام الآن، أنا ميّت من الجوع، هيا بنا.

ـ إلى أين؟

ـ ما هذا السؤال؟! إلى المطعم طبعًا.

ذهبنا إلى مطعم المذاق وطلبنا الرز والمرق، وقد أصرّ النادل على أن يدلّلنا؛ فوضع «الحكّاكة الذهبية» على وجه الرز، وزادنا طبقًا فيه شرائح بصل. «عشت يا ورد» شكره خالي، وعندما انتهينا ودفع الحساب، منحه بخشيشًا.

خرجنا من ضجيج المطعم ودلفنا إلى قهوة هوبي. جلسنا على الأرائك ذات اللون السماوي المريح، وشرب كل منا قدحين، فالشاي لدى ذلك الرجل الصموت ذي الكرش المتدلي رواية تُحكى. عدنا بعدئذ إلى المكتبة، وتشاغل خالي بتدقيق الحسابات، فهو لا يريد للحديث أن يطول ويعرض. أما أنا، فعقلي عند تمارا، حائرًا كيف أفاتحها بما جرى في دائرة الفنون.

في صباح الغد جادت لي بالقميص السماوي الفاتح بعدما كوته، فنظرت في عينيها الجميلتين وقلت: «لا داعي.» ثم قصصت عليها الحكاية دون تنقيح، فهطلت دموعها، وقالت: «خذني إلى بيت أهلي.»

أعرف ما سوف يحدث هناك؛ ستجلس على الأرجوحة وتفكر بالقدَر الذي وضعني في طريقها. لم تكن تعلم حين أشرعت لي باب قلبها أنها ترتكب أكبر خطأ في حياتها. لو علمت، لأخرسته وأغلقت عليه بالقفل والمفتاح، فتمارا خُلقت لحياة أخرى، حياة نظيفة مدوفة برائحة الياس والشبّو ليلي، ما لها وشظف العيش هذا؟!

لبّيتُ طلبها دون اعتراض. ظلت بضعة أيام هناك، وكانت الفرصة سانحة أمامي للبكاء. لكن دمعي ما زال عصيًّا، وتلك أزمة وجودية لم أجد لها تفسيرًا واضحًا. قضيت النهار في التسكّع بين المقاهي، وعندما جاء المساء، اشتريت زجاجة عرَق وافترشت بها بساط الوحدة. شربت الزجاجة كلها وثملت، ثم وقفت على الأريكة وطفقت أبحث عن حل للخروج من تلك الحفرة. فكرت بصوت مرتفع كمن يلقي

خطابًا في حضيرة حمير ويحثّهم على إبداء رأي حصيف، وفي النهاية رفع الحمار الجالس في الصف الأمامي يده، وأشار عليّ قائلًا: ليس أمامك إلا الموت يا أخي.

الفصل الثالث

ـ 20 ـ

ـ ماذا تفعل؟

قال، فأجبته:

ـ أكتب رواية.

ـ هاهاهاها

قهقه السفيه وعلّق:

ـ رواية؟! كم عمرك؟!

ـ ثمانية وعشرون.

ـ ثمانية وعشرون! وهل تعتقد أنه عمر كاف لكتابة رواية؟

ـ لم أفهم، ما دخل العمر في الكتابة؟

ـ الروايةُ يا...، ماذا كان اسمك؟

«لهذا الحد بلغ بك الغرور يا ابن الكلب؟!» قلت في سرّي، وأجبته:

ـ عزيز.

ـ آه، صحيح، عزيز.. المهم يا ابني، الرواية شرط كتابتها أن تكون عندك تجربة حياتية هامّة.

ـ لو كان الأمر كذلك يا عمّو الأستاذ، لكان باعة الخضار وسوّاق

التاكسي وأصحاب الملاهي، أولى بكتابة الروايات، فلهؤلاء تجارب حياتية في غاية الأهمية.

ـ لا تنزعج، أنا أتكلم لصالحك، دع الكتابة لأهلها وانشغل بعملك. على كل حال، شكرًا على الشاي.. سلّم لي على خالك.

ـ اللّٰه يسلمك.

الواقع أني لم أكن منشغلًا بكتابة رواية، بل رسالة حب لتمارا. لكني شاكسته، ليخرج قيحه ويستريح.

كان خالي جبران قد أصيب بوعكة وغاب ذلك اليوم عن المكتبة. ولسوء حظي مرّ روائيّ السفاهة للسؤال عنه.

بعد الظهيرة رفعت السماعة واتصلت بخالي من أجل الاطمئنان على صحته. كان صوته صافيًا إلا من سعلة هدرت وسكنت. سألني عن المكتبة، وأخبرته بأن صاحبه قد مرّ بنا، فشكر اللّٰه على نعمة المرض وضحكنا.

لم أنتحر تلك الليلة، فكرت في اقتراح الحمار، وقلّبته يمينًا وشمالًا، فوجدت أن للموت فضيلة لا تُنكر، وهي أننا حين نموت يموت لدينا الشعور بالهوان. لكني في الوقت ذاته تساءلت ماذا لو كان الموت جسرًا لحياة ثانية، فهل ننعم بالعتمة كما نرغب، أم يفضحنا الضياء؟! لم أعثر على الجواب، وركبني النعاس، فغفوت. وعندما استيقظت، أبدلت ثيابي ودخلت جنة خالي، فقد رضيت بالعمل معه، شرط ألا أثقل عليه، وأن أجد لي عملًا جانبيًا يعينني.

أخبرته قبل كل شيء أني لن أتقاضى منه أجرًا ما لم يكن الرزق وافرًا، فغضب وقال:

ـ لا تكن سخيفًا، هذا محلك يا غبي.

ثم كلّفني بجرد للمكتبة.

ـ حاضر.

بدأت بالرفوف القريبة، رفًا بعد رفّ حتى انتهيت، وهبطت إلى السرداب. كانت هنالك المئات من الكتب تالفة أو توشك على التلف. اقترحت أن نتخلص منها، بعد غربلتها، فوافق قائلًا: «افعل ما يحلو لك.»

رميت التالف، وعرضت الباقيات بسعر زهيد بعد أن أفردت لها منضدة فوق الرصيف. ثم أرشفت كتب السرداب وجعلته ناضرًا. باع خالي في الأثناء ثلاثة كتب أو أكثر، وكان مع كل بيعة يردد: «وجهك خير عليّ.» يقولها بغية أن يغريني بالبقاء، وإلا فصفحة المبيعات أشد بياضًا من الثلج. زادها أن الشارع قد ارتدى تلك الأيام قفطان التديّن، وصارت الغلبة للكتب الدينية.

كانت الحكومة قد ضخّت الآلاف من كراريس الحملة الإيمانية، بينما الحوزة في النجف تواصل نشر كتب التقليد وكتيبات الصلاة. حرب خفية وصراع فكري تجلّى على أرصفة الكتب. القرآن والسنة.. منهج الصالحين.. فقه الفضاء.. أحكام الصلاة.. حجابك يا ابنتي.. رحلتي من الشك إلى الإيمان.. إلخ إلخ كل ذلك مطروح للمارّة رغم

حملات التفتيش التي يشنّها بين الفينة والثانية رجال الأمن. لقد تديّن الناس وصار نادرًا أن يدخل زبون للسؤال عن مجلة علمية أو رواية أو كتيب خواطر حتى. الكل صار باحثًا في الدين، يلوك الأحكام الشرعية قائمًا قاعدًا. في الدواوين يدور حديث المرجعية، وفي المقاهي جدل حول «الأعلم»، وفي الكوستر خطبة الجمعة تصدح، علمًا بأننا في يوم السبت. لا ضير، ما دام هنالك مسجّل وشريط كاسيت، ومحلات للتسجيلات أبدلت الطرب بالخشوع.

لقد انحسرت من على الرفوف أشرطة السيدة والعندليب وياس خضر في مقابل العجمي والسديس والوائلي، وبات الشارع خاشعًا رغم بثور الفقر التي تشوّه خديه. وشيئًا فشيئًا نسي الناس ما حلّ بهم من جوع وضياع وانشغلوا في شأن الآخرة.

ـ 21 ـ

ذهبت ذات جمعة إلى حي السكك لرؤية أمي، ثم عرّجت على مهند الذي فاجأني منظره. لقد أطال ذقنه وارتدى خاتمين، وبانت عل جبهته ندبة صلاة. بل فاجأني أكثر أنهم باتوا ينادونه في الحي بالشيخ مهند. كان يرتدي بدل القميص والسروال دشداشة محكمة الأزرار حتى العنق، وبدا أنه راجع للتو من المسجد. دعوته للذهاب إلى مقهانا، فرفض وأصرّ على أن نجلس في غرفة الضيوف. دخلت وجلب الشاي، وكانت فرصة لمشاهدة الصور الكثيرة على الجدران. صور لمراجع دين بعمائم سوداء وبيضاء، وآية تتكرر على هذه الصورة وتلك: «إنما يخشى اللّٰه من عباده العلماء.»

ـ ما أخبار الهجرة؟

سألته حين وضع الشاي أمامي وجلس، فأجاب:

ـ كانت فتنة وقاني اللّٰه شرها.

ـ يا ستّار، ماذا جرى؟

ـ لا شيء، لكن الهجرة حرام.

ـ الهجرة حرام؟ يا رجل! النبي هاجر.

ـ أقصد الهجرة إلى بلاد الكفر، حرام، هذا يسمونه في الفقه التعرّب بعد الهجرة.

ستة أشهر وحسب هي المدة التي احتاجها صاحبي ليمسي فقيهًا، فهل ما زلتم تشكّون في عظمة هذه البلاد؟!

لم أطل الجلوس على بساط الكلام، لأسباب عديدة أهمها فهمي القاصر لحديث الدين. أشعر بالطرش وسط تلك الأحاديث، وتزيدني تيهًا فوق تيهي. لذلك انعطفت بصاحبي نحو أحواله وشؤونه الشخصية، تمهيدًا للرحيل. غير أنه أخرج من تحت الأريكة كتابًا ملفوفًا بكيس أسود، وراح يسأل فيما إذا كنت قادرًا على مساعدته. قال إنه كتاب بالغ الأهمية ينبغي أن يقرأه الجميع، ولا سبيل لذلك سوى النسخ.

ـ لكننا لا نعمل في الاستنساخ يا صديقي.

علّقت، فأجاب:

ـ أعرف، لكن أكيد أنك تعرف من يساعدنا في نسخه.

وبلا فواصل أردف:

ـ صدّقني لن تخسر، سيكون في ميزان حسناتك.

يهدي اللّٰه من يشاء ويضلّ من يشاء، فها هو ذا شريك «الأفلام الثقافية» يتحدّث عن الميزان يوم القيامة.

فللت الكيس لمعرفة ما سيثقل حسناتي، فكان «جمهورية الخوف.»

ـ مستحيل!

ـ لا مستحيل ولا شيء.. أنت أهل لها.

ـ مهند، هذا الكتاب يأخذني بالقطار إلى حبل المشنقة.

ـ اذكر اللّٰه يا رجل، أي مشنقة وأي قطار؟! الوضع فالت. ثم إنكم بأمان، ليس مثلنا.

ـ مشتبه، كلنا في الخرا سوا. آسف صديقي لا أقدر.

وضع يده على يدي وأخذ يقول:

ـ أبو العز، البلد محتاجنا، إذا ما نحط أيدينا بأيدي بعض ونتكاتف لن يصلح أمرنا، صدّقني. انظر لحالك؛ بسبب عاهرة فقدت وظيفتك، هل يرضيك بقاء البلد بيد العاهرات؟!

ـ لا، طبعًا.

ـ خلص يا أخي، توكل على اللّٰه وساعد في كشف المستور على الأقل. ما عهدتك جبانًا من قبل!

فركت جبهتي وقلت:

ـ حسنٌ، لكن هذه أول وآخر مرة.

ـ اللّٰه ينصرك يا بطل.

قال وهو يودّعني عند الباب. فأخفيت الكتاب تحت القميص وذهبت به إلى المكتبة. انتظرت حتى خرج خالي جبران وجلست

أقرأ. كان الفضول يهرش رأسي، فاكتشفت أن ما بين يديّ «مصيبة» كفيلة بإعدامي وإعدام عشيرتي. لن أتورّط بنسخ كتاب كهذا مهما حصل.. هذا ما قرّرته وأنا أخفيه في السرداب. سأعيده في الغد إلى مهند وليقول عني ما يقول.

عاد خالي ووجدني مضطربًا. تساءل عما أخفيه، فقلت:

ـ لا شيء يا خال، أفكّر في خطة لإنعاش المكتبة.

ـ عاش المدير عزيز عوّاد.

ـ عاش جبران الملك.

انقضى اليوم بالسلامة، وفي الغد فتحت باب المكتبة، ونزلت إلى السرداب لإخراج الكتاب وإخفائه تحت القميص. حالما يصل خالي أختلق مشوارًا وأذهب إلى مهند. تلك كانت بحول اللّٰه خطتي، لكني لم ألحق على تنفيذها، فلجنة من الأمن كانت قد دخلت في الأثناء للتفتيش عن الكتب الممنوعة وعثروا على «جمهورية الخوف.»

ـ جيبوه!

هتف كبيرهم، وأمر بتشميع المكتبة.

- 22 -

ما زلت أتذكر لونها، ميتسوبيشي بيضاء، يجلس فيها أربعة أشخاص؛ السائق وبقربه ضابط يُنادى عليه «سيدي»، وشابان في الخلف يدوسان بأحذيتهما فوق رأسي وظهري. بعد مسافة ليست بالبعيدة، أنزلت كالكبش ورميت في محجر تحت الأرض يحتوي على زير ماء وصفيحة للتغوّط. كان الجو خانقًا هناك، والمياه الآسنة تتسرب من تحت الباب ومن شقوق الحائط، وصراصير وفئران تتناسل بلا خجل في النهار.

لكنْ، ما كاد يصيبني في مقتل هو الشعور بالعجز أمام الأسئلة؛ ماذا سيحل بي؟ ما العقوبة المقررة لمن ينسخ الكتب الممنوعة؟ سجن أم إعدام؟ إعدام.. أجل إعدام. هل يأتون بخالي جبران؟ سيموت مع أول خطوة ههنا. بقيت على تلك الحال عدة ساعات، وفي المساء تنامى لسمعي صوت أقدام ثقيلة كأقدام الفيل كانت مقبلة من الدهليز. توقف الفيل وفك أقفال المحجر ثم دخل واقتادني إلى التحقيق بعدما قيّدني وعصب عيني بخرقة قماش.

في الطريق هرشني ظهري، فملت بكتفي يمينًا وشمالًا في حركة ساذجة لهرشه. لطمني على رأسي وقال بنبرة سافلة: «تحرّك ابن القحبة.»

ارتقينا السلّم وخرجنا من باب حديدي ثم انعطفنا شمالًا وسرنا في دهليز نظيف وبارد. كنت حافيًا أرتدي بنطالًا وقميصًا نالت منهما مياه المحجر. أدخلني الحارس الفيل إلى إحدى الغرف، من دون أن يفك قيدي، أو يزيل العصابة عن عينَي. ولكم رجوت اللّٰه أن يهديه لنزع تلك العصابة بغية التعرف على لون المصيبة من حولي!

تتضاعف المصيبة حين لا نعرف لونها، نحسبها رمادية، فتأتي سوداء كالحة، ونقول مصيبة سوداء، فيغمرنا لون الجحيم. على أرباب المصائب أن يشعروا بنا قليلًا، عليهم أن يتنازلوا عن كبريائهم ويخبرونا ما لون المصيبة القادمة.

ألقى المحقق سؤالًا نافلًا:

ـ اسمك عزيز عواد؟

فأجبت:

ـ نعم، عزيز عواد.

فعقب:

ـ (عزيز گواد) من مسؤولك؟

كان تصحيفه لاسم أبي مهينًا، لكن سؤاله مفزع ومحيّر في الوقت ذاته. فأنا ومذ دلقتني أمي في غرّة آذار 1970 لم أنتمِ يومًا إلى زمرة، ولم أُضرَب في خلّاط العزوة والجماعة. عشت طفولتي وحيدًا رغم غابة السيقان في بيت العائلة، لم أشعر بأن جذوري ضاربة في الأرض، بل لم أشعر بتلك الجذور حتى!

لا أعرف السبب، لو عرفته لما أخفيته عليكم. سألت ذات مرة خالي جبران، فقال بما يشبه الجواب: «ليس هنالك سبب منطقي، هكذا هي الأرواح، بعضها يشعر بالألفة، وبعضها يظل غريبًا حتى يرحل.» أما سؤال المحقق ذاك، فقد زعزعني، ولم أجد له جوابًا في ثنايا المخ سوى قول الحقيقة:

ـ لا أدري.

فضحك السافل وضحك من معه، ليصدر إثر ذاك أوامره إيذانًا بحفلة تعذيب صاخبة:

ـ علّقوه.

رُفعت فوق كرسي عند الباب، وعلّقت يدَي من خلاف فوق مسمار معقوف في الحائط، ثم دُفع الكرسي وتأرجح جسدي في الهواء.

المحقق بدا وكأنه خارج من رواية «شرق المتوسط»؛ ساديًّا يضرب بلا رحمة وينتشي مع كل آهة يسمعها. ربط بقدمي سلك الهاتف وراح يدير القرص ويضحك على ضحيته وهي ترتعش كالدمى الراقصة. كان، بين جلدة وجلدة، يسأل عن مصدر الكتاب، ومن يدير الشبكة.. فلا يسمع سوى الجواب أعلاه: «لا أدري.»

بالطبع، لم يكن إنكاري منطقيًا، فقد وجدوا «المصيبة» في حوزتي، إلا أن ضعفي قد وقف معي في تلك المحنة؛ إذ أغمي عليّ ولم أشعر بشيء. حينذاك تم إنزالي، ورشّي، بغية الإفاقة، بالبول بدل الماء. ولحسن الحظ أن الإغماء ظل يتكرر عند كل حفل للتعذيب.

في المرة الأخيرة، أعادني الحارس الفيل إلى محجري، وكنت في غاية الإنهاك، فنمت على بطني حتى الصباح، ومذ ذاك توقف التحقيق معي.

لقد ظننت أنهم قد توقفوا رأفةً بحالي، لكن تبين أن هنالك من تدخل.

- 23 -

بعد أربع عشرة ليلة في ذلك المحجر الرهيب، تم حلق رأسي وذقني، ونقلت إلى زنزانة يحتجز فيها واحد وثلاثون سجينًا بتهم شتى. تهم بعضها مضحك، فبالقرب مني لبّاخ، كان قد دخل السجن بسبب رؤيا في المنام. رأى أنه عبر الحدود إلى إيران، ومن هناك ركب البحر إلى أستراليا، فعاش في أرض الكناغر عيشة سعيدة.

هذا ما حكاه لزوجته وهي تقلي له البيض قبل ذهابه إلى المسطر. فرحت الزوجة بالرؤيا أيما فرح، وأخبرت نسوة الحي بذلك، فانتشر الخبر كالنار في الهشيم حتى وصل آذان الوشاة، فأسرع أحدهم إلى دائرة الأمن. وفي الليل داهم عناصر الأمن منزل اللبّاخ المغفّل، وتم اقتياده إلى السجن بتهمة التخابر.

يقول الرجل إن زوجته كانت قد تعلّقت بأذياله راجية خلاصه من أيدي المداهمين، وإن واحدًا منهم رفسها رفسة أسقطتها أرضًا. فهتف شامتًا: «حِلّ.. بعد إيدي.» ليقينه بأن طبعها الثرثار هو ما جلب له المصيبة.

أتذكّر أنّي، حين سمعت حكايته، حمدت اللّٰه على أن جرى

اعتقالي في المكتبة لا في المنزل، وإلا فإن تمارا كانت تموت فزعًا، أو تجهض على الأقلّ.

قضيت في الزنزانة أربعة وستين يومًا قبل أن يتم الإفراج عني أخيرًا. يومَها جاء الحارس وعصب عينَي ليرتقي بي السلّم ثم يمضي بي في دهليز طويل ينتهي بباب ثقيل آخر. فُكت مصاريع الباب وداعبتني نسمات تشرين. وضعت في جوف سيارة ناصية، وبعد مسافة قصيرة أزيلت العصابة عن عينَي لأبدو وكأني في نزهة قصيرة حول بغداد!

كانت السيارة بألوان التاكسي البيضاء والحمراء، والسائق يدخن السجائر ويدندن مع صوت المذياع. ثم بعد حين وعلى مقربة من كراج العلاوي، توقف وقال بهدوء: «انزلْ، ابن الكلب.» نزلت والشمس تنحدر في الأفق، وأصوات الباعة تختلط بتكبيرات المؤذن المنسكبة من منارة جامع ابن بنية. بائع الكعك يشفق لحالي ويمد يده بواحدة: «تفضّل، على حسابي.» فأشكره بإيماءة وأمضي. أيمّم وجهي صوب الصالحية وأسير مختبئًا بين الأزقة حتى أصل المنزل. أطرق الباب، وفي نفسي شك في وجود تمارا.

شهران وأكثر مرّا على غيابي، وهذا وقت طويل، أو أطول من صبر زوجتي على أية حال. كررت الطرق، وفتح الباب رجل يرتدي فانيلا منزوعة الأكمام وسروالًا داخليًا أبيض كالبراشوت. حدّق بي وقال:

ـ نعم، خير؟!

فقلت بصوت مبحوح:

ـ تمارا هنا؟

فردّ بكل صفاقة:

ـ اللّٰه يعطيك.

ويغلق بوجهي.

وللإنصاف، فإني لم أشعر بالإهانة، إذ لا شك في أن هيئتي تشبه هيئة المتسولين. بل شعرت بالراحة لصدق ظني برحيل تمارا، فلو رأتني على تلك الشاكلة، لسكت قلبها فزعًا.

انتحيت جانبًا وجلست على الناصية. كان الزقاق مضيئًا بمصابيح المنازل المتدلية فوق الأبواب، وهذا ما يوفّر بعض الأمان الذي كنت قد خسرته لصالح الفزع. الفزع الذي لم يكن يتيمًا في سجل الخسارات، فهنالك الصدر المتعب والخنصر المكسور، وهنالك المكتبة التي أغلقتها بسذاجتي.

انفكّ إذ ذاك باب جارنا وخرج صاحب الدار. نظر إليّ ولم يعرفني. ثم دنا وحدق، فهتف:

ـ أستاذ عزيز؟! لا إله إلا الله! ماذا حل بك؟!

سؤال ساذج، فما حل بي أوضح من شمس النهار؛ إذلال وإهانة مستحقة!

ـ يا الله! من الذي فعل بك هذا؟!

سؤال ساذج آخر!

لكني جاريته وركبت زورق السذاجة قائلًا:

ـ عصابة.

ـ عصابة؟! هل تعرفهم؟

ـ تقريبًا.

ـ لماذا لم تبلّغ عنهم؟

«لا، هذا كثير!» همست في سرّي، وقفزت من الزورق قائلًا:

ـ على أية حال، أنا عدت الآن، لكن يبدو أن الأهل غير موجودين.

ـ نعم، صحيح، جاء الجماعة وحملوا أغراض البيت. تفضل عندنا.

شكرته، فزاد إصرارًا:

ـ قسمًا باللّٰه لن تذهب.. تفضل أرجوك، هذا بيتك يا رجل.

وإذ ذاك داهمتني فكرة استغلال الرجل والنفاذ من البؤرة الرخوة في قلبه لتحقيق غايتي:

ـ تسلم يا طيّب، أكون ممتنًا لو أوصلتني بالسيارة.

ـ على عيني.

جلب المفاتيح وأركبني، ثم أدار المحرّك وقال:

ـ إلى أين؟

ثلاثة أمكنة لا رابع لها: بيت أهلي، وبيت أنسبائي وبيت خالي.

استغرقت بضعة ثوان للمفاضلة بينها، فلم أجد أفضل من خالي جبران، رغم ما فعلته به. كان قلب أمي ضعيفًا، أضعف من أن يحتمل رؤيتي بهذه الشاكلة، أما أنسبائي، فلست واثقًا من أن بابهم سيفتح في وجهي، لا أدري ما الموقف هناك.. سأذهب إلى خالي وأنزل على قدميه.

ـ إلى أين، أستاذ؟

ـ الشواكة.

ـ حاضر، على عيني.

ـ تسلم عينك.

أوصلني الجار إلى محلة الشواكة ورحل. لكن خالي هو الآخر لم يكن في المنزل، وهذه معضلة على اللّه أن يتدخل لحلّها. إذ ليس من العدل أن أظل واقفًا على الباب بهيئتي هذه، فتشم الكلاب رائحتي من بعيد وتظنني واحدًا منهم! أنا إنسان كامل الأهلية ومن حقي على اللّه أن يحفظ كرامتي. ثم إن اسمي «عزيز» ألا يكفي هذا؟!

ـ 24 ـ

تجشأ رجل في أول الزقاق وأقبل. كان متوسط القامة بكرش كبير، يرتدي بنطالًا وقميصًا، ويدخن السجائر. وكان الدخان يتطاير من فمه ويتداخل مع ضوء المصابيح ليصنع غمامًا فضّيًّا في غاية الروعة.

مرّ بالقرب مني وألقى تحية عابرة: «سلام عليكم.» رددتها واستأنفتُ السير لقطع الطريق على سؤال محتمل عما أفعل ههنا ومن أريد. فأنا لا أريد سوى خالي جبران، وها هو ذا قادم أخيرًا.

هتف حالما تعرّف عليّ:

ـ عزيز؟!

ـ إي، خالي، عزيز.

ـ ماذا فعلت بنا يا ابن الكلب؟!

تعانقنا، وأدخلني المنزل، فشكرت اللّٰه في سرّي على أنه ليس غاضبًا. أجلسني على الأريكة وجلب لي قدح ماء، وفي عينيه رقراق دمع مكابر. قصصت عليه باختصار ما جرى، فانتصر الدمع وانسكب.

ـ أنا آسف يا خال، وجهي أسود ولا أعرف ماذا أقول!

ربّت على كتفي مردّدًا:

ـ لا تهتم، المهم أنك رجعت لنا بالسلامة.

ـ والمكتبة؟

ـ اطمئن، مفتوحة وبانتظارك.

ثم جفف دموعه بكم قميصه واستدرك ممازحًا:

ـ لكن ريحتك جايفة يا حبيبي.

ضحكنا، وسعلتُ، فجذبني قائلًا:

ـ هيا انهض، عليك زيارة الحمّام فورًا.

وضع لي عند المغسلة موسى الحلاقة وعلّق المنشفة على المسمار، ثم جلب ثيابًا من عنده، وذهب إلى المطبخ يعدّ الطعام.

أما أنا، فوقفت أمام المرآة أنظر في وجه غريب لا أعرفه. وجه ذابل كثمرة الليمون، يختفي تحت برقع من الذلّ.

من أنت يا هذا؟!

من أي جحيم قدمت؟!

وإلى أين جحيم تذهب؟!

تناولت معجون الحلاقة وعصرت دمعة على كل خد، ثم بللت الفرشاة ومررتها حتى تم طلاء الذقن بالكامل. ألقمت الماكينة الصغيرة الموسى ورحت أكش لحيتي. انتهيت منها ودلفت إلى

الحمّام، تجرّدت من ثيابي وغسلتها، ثم أنزلت الليفة المعلقة بواسطة مسمار على الحائط، وفركتها بالصابون، ودعكت بها جسدي. تنشّفت وارتديت بيجامة خالي، التي أظهرتني لقصرها مهرّجًا.

جلست في الصالة، وما زال رب البيت منشغلًا في إعداد الطعام. طبخ لي دجاجة كاملة وأقسم بعرض أخته ألا يستقبلني ثانية ما لم ألتهمها كلها. أكلت وشبعت، وخمّر الشاي وشربنا.

قصصت عليه تفاصيل اليوم المشؤوم وما جرى في حفلة التعذيب وما تلاها، وقص عليّ ما جرى من بعدي. لقد هرب حين أبلغه بائع الأنتيكة عبر الهاتف ما حصل. لم يكن في مأمن من الاعتقال فهو صاحب المكتبة. اتخذ خطوة سليمة واختبأ لدى صديق له يقطن في حي الغزالية، ومن هناك أدار الحكاية؛ تواصل مع رفيق له من ذوي العلاقات، وأدخل الأخير أنفه ليشمّ الأخبار. عرف مكاني، والمحقق المسؤول عن قضيتي، وقد سهّل الأمر أني لم أعترف.

إلا أن الأمر لم ينقض دون رشوة، فاضطر خالي إلى بيع دكان الشواكة ودفع خمسمائة ألف دينار لقاء غلق الملف. «استعدنا المكتبة واشترينا حريتك بنصف مليون يا ابن كميلة.» عقّب وهو يضحك.

اعتذرت له ثانية وثالثة، ووعدته بردّ الدّين، فكان جوابه واحدًا لا يتبدل:

ـ لا تهتم، المهم أنك رجعت لنا بالسلامة.

سألته عن الباقين:

ـ كيف حال أمي؟

ـ أمك بخير. مثلما تركتها. لم تسمع بالخبر، قلنا لها إنك مسافر في عمل.

ـ هل رأيت تمارا؟

ـ لا، لكن تمارا فتاة قوية، لا تخف عليها.

وبعد حين استأذنته:

ـ تسمح لي خال، جسمي تعبان.. تصبح على خير.

ـ وأنت من أهل الخير، حبيبي.

ذهبت إلى الفراش، وتركته وحيدًا يقرأ.

- 25 -

يروي أهل الشواكة عن جدي لأمي، الحاج عبد الواحد العطار، أنه كان قد حزن كثيرًا لرحيل خالي الوحيد، يونس، متأثرًا بمرض الكوليرا، وأنه واصل الإنجاب على أمل أن يعوّضه اللّه ولدًا يحمل اسمه. فحدث أن أنجب سبع بنات واحدة تلو الأخرى. الأمر الذي أفقده صبره ودفعه للتمرّد على اللّه والامتناع عن دفع الزكاة.

زاره في المنزل إمام جامع الشواكة، وبيّن له فداحة ذنبه، وأن الفقراء سيعترضونه على الصراط يوم القيامة، كما لن يدعوه وشأنه في الدنيا، حيث إن دعواتهم ستلاحقه حتى يمرض ويضعف بدنه ويتساقط شعره، ومن يدري ربما يمسّه شيء من الضعف الجنسي، ما لم يسارع للتوبة.

حينذاك لم يستطع الجد عبد الواحد التماسك، فبكى كالنساء وشكا للإمام وجعه. فنصحه الأخير بالاغتسال والذهاب إلى النهر عند غروب الشمس.

قال له إن فيلقًا من الملائكة يهبطون للاغتسال في نهر دجلة كلما غربت شمس بغداد، وإن فيهم من يخجل لسماع نجوى العباد دون قضائها، فيحملها على جناحيه ويطير صوب السماء السابعة، فلا

تمضي تلك الليلة ما لم تُستجب النجوى. لكنه شدّد على أن يكون الأمر مقرونًا بالتوبة والاستغفار والنذر.

استجاب حضرة الجد وأعلن توبته الفورية بين يدي الإمام، بل ودفع له ما في ذمته من زكاة. ثم اغتسل وخرج عند الغروب إلى نهر دجلة، ليجلس على الجرف مناجيًا: «يا رب، يا عالمًا بحالي، هل تستكثر عليّ ولدًا يجبر خاطري، ويعوّضني يونس؟ هل تعاقبني بالحرمان من الولد وأنت أرحم الراحمين؟ خذ من عمري وارزقني الولد يا رب.»

وبعد عام على تلك المناجاة جاء الولد، فذبح جدي لأجله عجلًا عظيمًا وفرّق لحمه على أهل المحلة، ثم رفع يديه نحو السماء قائلًا: «الحمد للّٰه على جبران الخاطر.» ومنح الصبي اسم جبران. إلا أن مناجاة النهر قد استجيبت كاملة، إذ قصُر عمر جدي ومات واقفًا دون علّة، ليمضي الصبي في الحياة يتيم الأب.

لم يكن خالي جبران في صباه راضيًا باسمه، إذ يشعر أنه اسم ثقيل وقابل للتصحيف. وقد ظل كذلك حتى دخل المدرسة والتقى معلم العربية العاشق للأديب جبران خليل جبران، فصار المدلل عنده، والمحاط بعنايته إلى حد أن واحدًا من الصبية لم يجرؤ على الاحتكاك به والسخرية من اسمه أو كرشه أو قامته القصيرة. فمذ خلق اللّٰه خالي جبران وهو مكوّر يشكو البدنة. بل تشعر وأنت تقلب في ألبوم العائلة أنه ولد بكرش!

شكرًا للّٰه أن سخّر له معلّمًا يحميه، وإلا لقُضي عليه باكرًا. فوق هذا دفعه ذاك المعلم المنقذ إلى قراءة أدب جبران خليل جبران واكتشاف عوالمه الساحرة في وقت مبكر. وهكذا تعلق خالي بمؤلفات سميّه، وصار منشغلًا بالقراءة والكتب، حتى غدا فيما بعد شيخ الكتبيين في بغداد.

لكنه رغم كل الكتب التي قرأها والتي باعها، ظل وفيًا للقراءة منحازًا لها، ولديه قناعة تامة بأنها في مرتبة أعلى من الكتابة. بل يرتفع لديه منسوب التعصب أحيانًا، فيندفع ليصف الكتّاب بأنهم طهاة يجتهدون لإطعام السادة القراء.

عارضته مرة:

ـ لولا الكتابة لانتفى فعل القراءة. الكتابة هي الأساس، المسألة بديهية.

ـ إنما تقول ذلك لأنك انزلقت خلف السطور، أنت لست قارئًا نقيًا، بل قارئًا مشوّشًا بنزوة الكتابة.

ـ دعك مني، هل حقًا تعتقد أنّ الكتّاب طهاة، هل شكسبير العظيم مثلًا طاه؟

ـ أجل هو طاه من أجل جوناثان ورافاييل ومارتن وكاثرين وحسين عبود وغيرهم.

ـ من هؤلاء؟

ـ القراء، المتذوقون الذين لولاهم لما طها شكسبير الطعام، أقصد الكتابة.

ـ ماذا سيقرأ هؤلاء لولا قِدر شكسبير؟

ـ ولمن يكتب شكسبير لولاهم؟

ـ ألا تظن أننا ندور في متاهة البيضة والدجاجة؟

ـ ربما، لكن إياك أن تصدّق كاتبًا يدّعي الكتابة لنفسه، لو كان صادقًا، لاحتفظ بها وما كلّف الطبيعة شجرة.. إنهم يكتبون لنا.

ـ 26 ـ

استيقظت على صوت فيروز يبلل الحوش ويسقي شجرة النارنج في المنتصف:

تحت العريشة سوا

قعدنا سوا وقلنا

كرم المحبة استوى

وخبّى منازلنا..

ـ صباح الخير، خال.

ـ صباح الورد، غسّل وجهك وتعال افطر.

كان قد جلب القيمر والكاهي وكأننا في صبيحة يوم العيد. وضع إلى جنب الأطباق إبريق شاي وقدحين، وسلة ملأى بالصمون الخارج للتو من الفرن، ثم جلس ينتظر. نظرت إلى لحيته الحليقة وشعره المصفف، وإلى قميصه الأبيض، الذي مرّت عليه المكواة وسلّمت، ثم رمقت حذاءه الجلدي الأسود، المدهون واللامع كما ينبغي لأحذية الرجال أن تكون، فربّتُّ إذ ذاك على الخشب قائلًا:

ـ عيني عليك باردة يا خال.

أجاب:

ـ تسلم لي عينك.

وأردف:

ـ مد يدك، لازم تعوّض أيام السجن.

ـ لكن ما كل هذا؟

ـ هذا كاهي الأورفلي العظيم.

ـ أوه، رحت لشارع السعدون؟!

ـ طبعًا. كم عزيز عندي أنا! كل كل.

ـ تسلم لي يا خال، ربي يديمك.

أفطرنا وخرجنا. كانت سيارته البيجو مركونة أمام باب المنزل ومدثرة بالقماش، فما زال يستخدم قدميه للذهاب إلى المكتبة والسوق وبعض المشاوير، فإن بعد المشوار ركب الحافلة. ذهبنا إلى المشفى لإجراء بعض الفحوصات والتحاليل. فكان كل شيء على ما يرام بحسب الطبيب المعالج، الذي نصح بالراحة. كما وصف دواءً للهرش، وجبيرة لخنصر اليد اليسرى الذي عاب وصار أعوج.

غادرنا المشفى، وخالي جبران يتساءل:

ـ والآن؟ أين العزم؟ الوالدة أم الحبيبة؟

ـ للحبيبة الوالدة.

ـ على أمرك، عزيز باشا. ـ قال وهو يوقف تاكسي.

ـ لكنْ، خالي اذهب أنت على باب اللّٰه، وأنا آخذ تاكسي.

ـ لا، نذهب سوية، حاب أطمئن على أختي، عندك مانع؟

ركبنا إلى بيت أهلي، الذي استباحه أخي صبيح بشكل كامل. لقد قطع اللعين نخلة البرحي، ليقطع معها حبل الذكريات. كنا نجلس تحتها في صباحات الصيف لتناول الإفطار رفقة أمنا، وكانت رائحة الكرب تمتزج برائحة الشاي الفائحة من إبريق الخزف لتصنع أيامنا.

كان ذلك الإبريق عزيزًا على قلب أمي، ولا تستلذ الشاي إلا من فمه. لونه أزرق وعليه طرّة ورد تحيط بصورة واحد من باشوات الزمان، يبلغ من العمر ما يقارب العقدين، فهو من جهاز عرسها كما تقول. كانت تضعه فوق السماور الصغير وتنطره ريثما يهدر، ثم تصب لنا وهي تدندن: «خدري الچاي خدري.. عيوني المن أخدره..» فنشربه مع البيض المقليّ وخبز التنور الساخن، ونخرج لركل الكرة في أزقة العافية.

الآن، لا وجود لنخلة البرحي، ضحّى بها الأخ الأكبر من أجل غرفة صغيرة لأبنائه. غرفة أخرى شيّدها فوق السطح لبقية الأبناء، كان قد هدم لأجلها الستارة القديمة ذات الطابوق المزخرف وأبدلها بالثرمستون الأبيض القبيح. كما فتح في السياج دكانًا لتوزيع الحصة التموينية بعدما صار وكيلًا للشركة العامة للمواد الغذائية.

استقبلنا لدى الباب بحفاوة مفتعلة، وأدخلنا إلى غرفة الاستقبال كالضيوف. لم يزعجني ذلك التصرف، على أية حال، فالعلاقة بين العمر والعقل لدى أخي صبيح وأمثاله علاقة عكسية؛ كلما كبرت أعمارهم، تضاءلت عقولهم. لكن ما أزعجني هو زر الملامة الذي كبس عليه أمام خالي جبران:

ـ هذا مصير من يناطح الحكومة.. هذا مصير من يناطح الحكومة.

كررها مرتين وكأنه يتشفى!

أقسمت له بأني لم أناطح أحدًا، وأدنيت رأسي كي يتأكد: «انظر يا أخي، ما عندي قرون.» لكن دون جدوى، فوفّرت عناء الشرح، وأطرقت حتى شبع وكفّ عن اللوم.

ألقت الزوجة الثانية آنذاك التحية من خلف الباب، وكانت بيدها صينية شاي. تناولها صبيح ووضعها أمامنا، فشربنا، ليصحبنا بعدئذ إلى حجرة أمي.

ما تزال طريحة الفراش تدعو اللّٰه أن يعجّل بأجلها. احتضنتني حين رأتني، وكانت رائحتها، واحسرتاه، نتنة. لقد بدا واضحًا أن أحدًا لم يحمّمها منذ وقت طويل. شزرت أخي، لكني سرعان ما تذكرت خسّتي، فتوقفت عن فعل ذلك. فأنا الآخر خسيس ولم يشغلني أمر أمي.

«شششلوونـ..» حاولت أن تسألني عن حالي، فقاطعتها قائلًا: «بخير بخير، يا أمي، الحمد لله.. المهم أنت. لا تتعبي نفسك.» وأنا أمسح جبينها وأعيد خصلة الشيب تحت فوطتها البيضاء.

لا أحد يستطيع الصمود في جُحر رطب ونتن كهذا، فكيف بقلب عاجز؟!

شعرت أن السؤال يدور في رأس خالي جبران الذي ظل يحدّق في وجه أخته وفي عينيه دمعة.

عند الوداع قال لأخي:

ـ دير بالك على أمك، صبيح.

فأجابه بوقاحة:

ـ اطمئن خالي، أمي بعيني.

ثم افترقنا.

ـ 27 ـ

«انظري إلى أخواتك، كيف عايشين، وأنت لاحقة هذا الحافي!» قالت أم تمارا بصوت مرتفع.

لم يؤسني مقالها، ولو جمّلتْه قليلًا لأثارت عجبي، فهذه المرأة لا تطيقني وتنتكس حالها كلما تذكرت أني زوج ابنتها. إحساس لم تخفه مذ رأتني أول مرة، ومشاعر كراهية طافحة من العينين، فلمَ الأسى؟

كنت قد ودّعت خالي وركبت إلى حي اليرموك للقاء تمارا. كبست على زر الجرس، وبعد لحظات فتحت عمتي العزيزة.

ـ مرحبا عمّة! ـ ألقيت عليها التحية، ولم تسمع!

كانت مذهولة للكائن الفضائي الواقف أمامها.. نحيف وأصفر.

انتبهت أخيرًا، وأطلقت مدافع الكلام:

ـ هذا أنت؟!

لكن تمارا جاءت من بعيد، وتوقف القصف. لا شك رأتني من خلال النافذة المطلة على الحديقة. احتضنتني رغم بطنها الذي صار كبيرًا. قبّلتها كثيرًا، وشممت عنقها، ثم مررت إصبعي على جبهتها، وطبعت عليها عدة قبل.

جبهة تمارا كالشمس، تظل مضيئة وإن حجبها الحزن، ولطالما أحببت النظر إليها وتقبيلها. «ما به إصبعك؟» تساءلتْ. «لا شيء، كسر بسيط.» أجبت وقبّلتها من جديد.

لم نلحظ اختفاء الأم من حولنا، لقد انسلت ودلفت إلى داخل المنزل دون صوت. فجلسنا على الأرجوحة نحكي. كانت تمارا ممسكة بيدي تستمع بأسى لما حصل في المحجر، وبيدها الثانية تحمي بطنها وكأن الخوف من رحيل «سامر» ما زال قائمًا يتجدد.

«تمارا.. تمارا..» نادت الأم من جوف المنزل، فلبّت تمارا النداء قائلة: «الله يستر من ماما.» ثم دار جدل وارتفع صراخ.

لن تهدأ هذه المرأة ما لم تحرر ابنتها مني. سمعتُها تلعن الساعة التي طرقتُ فيها الباب خاطبًا، وعيّرتْها بالنعيم الذي تعيشه أختاها:

ـ انظري إلى أخواتك، كيف عايشين، وأنت لاحقة هذا الحافي.

نظرتُ إلى قدمَي وحمدت اللّٰه أنهما ليستا حافيتين كما تقول العمّة العزيزة. ثم نزلت عن ظهر الأرجوحة وغادرت دون استئذان.

ـ 28 ـ

لا بد من سقف يظللنا. تداولت الأمر مع خالي جبران، فاقترح السكنى معه: «هات تمارا وتعاليا اسكنا معي.. البيت واسع.» لكني شكرته مفضلًا ألا أزيد عليه العيار. وفي الغد ذهبنا إلى خضر الدلّال؛ العجوز الذي يتخذ من مقهى هوبي مكتبًا لإدارة أعماله. لم تكن المهمة سهلة؛ البناء متوقف والإيجارات مرتفعة وماكينة التفريخ شغّالة. لقد ضاقت البيوت الضيّقة من الأساس بأهلها، وصار سهلًا رؤية ثلاث عوائل تتقاسم بيتًا لا تتجاوز مساحته المائة متر مربع. الهجرة إلى بغداد، رغم القوانين الجديدة، ظلت متواصلة، فجفاف الأنهر وتجفيفها قتل الزرع وأفقر القرى ولا وجهة للفلاحين يقصدونها سوى أم البلاد.

استقبلنا العجوز بحفاوة وطلب لنا الشاي، ثم أخذ يتحدث عن سوق العقارات وكأننا نروم شراء عمارة. لم يحتمل خالي جبران الثرثرة، فقاطعه بنبرة مازحة:

ـ اختصر أستاذ.

ضحك الأخير بصوت عالٍ، وأعطانا المختصر:

ـ يوجد بيت قربنا، في هذا الزقاق، بيت أم رياض.

ـ أم رياض؟! من هذه؟

تساءل خالي، فأجابه:

ـ الحاجّة أم رياض، كانت تعمل (شسمه) وتابت. تملك عمارة في الكرادة، وهذا بيتها القديم، عرضته للإيجار.

وعندما شاهد نظراتنا، أردف:

ـ اطمئنوا، البيت نظيف، ما عليه شبهة.

ثم صحبنا لمعاينته. فكان لا يفرق كثيرًا عن سابقه؛ بائسًا ورطبًا، يتألف من حجرتين ومطبخ وحمّام، وصالة مسقوفة بالجذوع والطابوق العاري. «ها، ماذا تقول؟» تساءل الدلّال.

حقًا ماذا تقول يا ابن عواد؟ ما رأيك بهذا الخراب الذي جلبته لنفسك؟ موافق، أم لديك أقوال أخرى؟ جذبت شهيقًا وزفرته، ليخرج الجواب مدوفًا بالغصّة: «موافق.» ويزيد خالي جبران: «سنجري بعض التصليحات، ونقطعها من الإيجار.»

هزّ الدلّال رأسه موافقًا، وذهبت إلى تمارا. وقفنا تحت عريشة العنب في الممر الطويل المجانب للحديقة، وأخبرتها بما عندي. شرحت لها المكان ومنحتها تصورًا كافيًا عما ينتظرها من جحيم، فأومأت بيأس وقالت افعل ما تراه مناسبًا. وفي الغد حملنا الكراكيب على ظهر بيك أب، وسكنا هذا المنزل الشبيه بالعراق من حيث المناخ المدوّن في كتاب الجغرافية؛ حار جاف صيفًا، بارد ممطر شتاءً.

في ليلتنا الأولى، أتذكر أن الباب طرق. كانت إحدى الجارات قد حملت لنا صينية طعام عربون جيرة؛ كباب مقليّ وباذنجان وبطاطا، مع طاسة لبن وخبزتين. «سامحونا على التقصير يا جماعة» قالت المرأة، فشكرتها على كرمها، وأغلقت الباب. لكني تناولت الطعام لوحدي، فتمارا تدّعي الشبع.

انتهيت بسرعة وغسلت يدي وخرجت لشراء الجبن والخبز. أعلم أن تمارا جائعة، لكن مزاج الحامل يمنعها من تناول أي طعام. وجدتها في المطبخ تبكي، والحق معها، فحال ذلك المطبخ يبكي العدو قبل الصديق. البلاط محفور والسقف أجرب، ورائحة الزيت الملتصق بالجدران مثيرة للغثيان. أما حوض الغسيل، فالله وحده يعلم من أي خرابة تم انتشاله!

نشّفتْ دموعها بأردانها وتظاهرت بالصلابة، وهي تتناول الأكياس من يدي. «خادم للحلوين أنا» مازحتها، فابتسمت، غير أنها بدت طوال الليل حائرة.

كانت كالغريب في وطنه؛ ينازعه الشك بالانتماء! غير أنها سرعان ما فزّت من لحظة الصدمة، وبدأت مرحلة التآلف مع المكان. أقول ذلك لأني رأيتها تحوك جوربًا صوفيًا للقادم الجديد. أما أنا، فأكملت كل شيء واسترحت بضعة أيام للنقاهة من آثار السجن. لم يكن لي من عمل سوى الاستلقاء على الأرض والقراءة أو الاستماع إلى صوت المذياع. فالتلفاز تهشّم حين ألقى اللعين أغراضنا في الشارع. طالبته بالتعويض، فهددني بالأمن، وأحجمت.

«سنشتري تلفزيون» قلت لتمارا وأنا أخرج كتابًا من الخزانة وأستلقي جنبها في السرير، فطقس القراءة المشتركة، لم يتوقف رغم كل ما حصل. كنا نقرأ كل ليلة في السرير، وحالما يأتي موعد النوم، نفترق، إذ لا يحق الاقتراب من تمارا بداعي الحفاظ على حملها. كنت أهبط لافتراش المرتبة الإسفنجية على الأرض، بينما تظل هي في الأعلى. فأنا وإن هرس الشوق مهجتي، لم أخترق قواعد الاشتباك، وظللت ملتزمًا بالوصايا.

ـ ماذا ستفعل مع خالك؟

تساءلت وهي تتناول الكتاب مني وتشرع بالقراءة من حيث انتهينا. كانت رواية «مائة عام من العزلة»، فقلت:

ـ لا أدري!

وأدرت ذراعي حول كتفها شروعًا بالاستماع. لكنها احتالت في عدد الصفحات لم تكمل حصتها من القراءة.

ـ تمارا، بدون غش، باقي لك ثلاث صفحات!

ـ أعرف، نعسانة، أنت اقرأ.

تناولت الكتاب وشرعت في القراءة من حيث انتهت:

«كانت كارميليتا مونتييل، وهي عذراء في العشرين، قد انتهت لتوّها من الاستحمام بماء زهر البرتقال، وكانت تنثر أوراق إكليل الجبل على فراش بيلار تيرنيرا، عندما دوّى صوت العيار الناري. كان مقدّرًا لأوريليانو خوسيه أن يعرف معها السعادة التي أنكرتها عليه آمارانتا،

وأن تنجب له سبعة أبناء، وأن يموت بالشيخوخة بين ذراعيها، لكن رصاصة البندقية التي دخلت في ظهره، ومزقت صدره، كانت منساقة بتفسير خاطئ لورق اللعب..»

أطبق النعاس جفنيها، فغطّيتها بالملاءة الخفيفة، وتوسدت الأرض بعدما أطفأت الضوء.

- 29 -

حقًا ماذا أفعل مع خالي جبران؟ كيف أسدّد دينه؟ راودتني فكرة المطالبة بالميراث، أعيد شيئًا لخالي، وما زاد أفتح به مقهى لتقديم الشاي، فالعراقيون لا يتوقفون عن شرب الشاي حتى في يوم القيامة. لن أكون غنيًا، أعلم هذا، لكني لن أظل مدينًا لأحد، وهذا غاية ما أطمح إليه في حياتي.

ذهبت إلى بيت أبي، ومن جديد أنزلني أخي منزلة الضيف. جلست في غرفة الاستقبال حائرًا مرتبكًا. طلبت الماء وشربت، ثم تنحنحت وشرعت في قص حال يعرفها. ورويدًا رويدًا حتى طرحت موضوع الميراث ورجوته منحي حصتي من البيت.

كنت محرجًا من الأمر، إلا أن صندوق الحلول فارغ، فماذا أفعل؟ لكن جواب أخي لم يجعلني نادمًا على الكلام وحسب، بل على الاحتفاظ بأخوّته كل هذا الوقت. فحالما وضعت نقطة آخر السطر، فزّ كالملدوغ، ثم أرعد وأزبد وأشهر إصبعه في وجهي صارخًا:

ـ اسمعْ لَكْ، هذا بيتي، أنا عمّرته وحفظته وصرفت عليه. أخواتك تنازلن عن حصصهن لي، وأنت تركتنا ولحقت زوجتك، ما لك عندي أي حصة.

ـ لكن يا أخي..

ـ لا أخي ولا بطيخ، قلت لك هذا بيتي، وإذا لم يعجبك كلامي، اذهب للمحاكم.. أريد حصتي، أبو حصة!

هل صادفكم ذلك الشخص الذي يشهر بوجهكم سلاح الصريخ هروبًا من المواجهة؟ هكذا بالضبط فعل أخي الأكبر؛ ظل يصرخ بوجهي حتى شككت أني المذنب بيننا!

لم أجادله، اكتفيت بالصمت ودخلت للسلام على أمي. وجدتها ترتعش واللعاب يسيل من فمها. «اطمئني يوم، ماكو شي.» حاولت بذلك تهدئتها، ثم مسحت فمها وقبّلتها وخرجت. أما صبيح فواقف في الصالة، يدير لي ظهره.. ارتديت حذائي ومضيت.

ـ 30 ـ

أنبئوني؛ ماذا عليّ أن أفعل لترضى عني حياتكم هذه؟! أنا لم أدّخر جهدًا من أجل رضاها، فإلى متى يدوم سخطها؟!

أشعر بالضيق، وأشعر بالضيق أكثر من دوام شعوري بالضيق. وصلت آخر الزقاق وانعطفت شمالًا بدل اليمين وقصدت بيت صاحبي. طرقت الباب سائلًا، فجاء صوت الخالة أم مهند دافئًا: «الشيخ طالع.» شكرتها وذهبت إلى مقهى العاطلين. جلست على الأريكة فوق الرصيف أحرق السجائر وأتفرّج على المارّة كالغريب. بعد حين مرّ مهند معتمرًا عمامة بيضاء كبيرة ويقود سيارة برازيلي زرقاء. لوّحت له، فاكتفى بالضغط على الزامور. منحني طيييييط ومضى في سبيله!

ضربتان على الرأس في يوم واحد! هذا كثير يا الله!

ليس لي سوى تمارا، وخالي جبران، الذي خجلت وأنا ألج المكتبة وأسلّم عليه. شعر بي وقال للتدارك: «لماذا تأخرت؟» في إشارة إلى أني ما زلت موظفًا في المكتبة، فقطعت عليه الطريق:

ـ خالي، تعطيني البيجو، ولك نصف الوارد؟

ـ نعم؟!

ـ خالي، تعطيني البيجو، ولك نصف الوارد؟ واضحة!

ـ فهمت، لكن ماذا تقصد بنصف الوارد، أي وارد؟

ـ أقصد أني أعمل عليها تاكسي.

ـ بني، قلنا العمل ضروري، لكنك خريج جامعة، هل يعقل أن تصير سائق تاكسي.. هذه مكتبتك.

ـ ضحّكتني يا خال! وكأنك تعيش في الستينيات!

ـ هل تراني عجوزًا لهذا الحد يا ولد؟

ـ بل سيد الشباب، لكن، خالي العزيز، الجامعة التي تتحدث عنها كانت محترمة في زمانكم، أما الآن فقد صارت نكتة. أعطيك أمثلة؟

ـ لا، لا داعي.

ـ المهم، ماذا قلت؟ تعطيني البيجو أم لا؟

ـ أعطيك طبعًا، خذها أفضل مما تبقى مركونة في الشارع. لكن بشرط؛ عندما أحتاجك، تأتي.

ـ على عيني.

كانت البيجو بصحة جيدة. صحيح أن جهاز التكييف معطل والنوافذ غير محكمة، إلا أن قلبها سليم ومذياعها شغّال، وهذا يكفي.

لا ينبغي لسائق التاكسي أن يمضي بلا مذياع؛ أول درس تعلمته في تلك المهنة الشاقة، وبالتحديد في وردية المساء. فمنذ اليوم الأول

شطرت عملي إلى وردتين؛ تبدأ الأولى في العاشرة صباحًا، فزحام ما قبل العاشرة مقبرة للوقت والمزاج، وتنتهي عند الرابعة عصرًا. بينما الثانية برحيل الشمس حتى انتصاف الليل.

كان العمل بورديتين مجهدًا، لكن ادخار الجهد في معركة الخبز خيانة لا تغتفر. هذا على الأقل ما أعلل به نفسي كلما آلمني ظهري، أو أرد به على اعتراضات تمارا لتركها كل هذا الوقت. كنت أوصلها إلى بيت أهلها صباحًا وأعود لاصطحابها في المساء. لم أكن راغبًا في ذلك؛ يؤلمني قولها المتكرر: «خذني إلى بيت أهلي.» وكأنها بلا مأوى! ويؤلمني أكثر حين تطالب بالتوقف بعيدًا عن باب الدار. تفعل ذلك بحجة ضرورة المشي للمرأة الحامل، إلا أن الحقيقة ليست كذلك؛ فتمارا تخشى أن يراني أحد من أهلها ويتم حينئذ إحراجها ولو بإيماءة هزء عابرة.

أحيانًا يغلي الدم في عروقي وأوشك على وضع حد لهذه الزيجة المتعثرة، لكني أراجع الفاتورة برويّة لأقول في النهاية: الحق معها. فتمارا التي أراها الآن ليست تمارا الجامعة. تغيرت كثيرًا وتبدل حالها. لم تعد تلك الفتاة الشبيهة بالورد وأحلى. لقد صارت بفضلي امرأة كبيرة، بطنها منتفخ، تستره بثوب وعباءة. الكعب الرشيق أبدِل بنعل من البلاستك المعاد، والتنورة القصيرة بالجلابية. حتى شعرها لم يعد جذابًا بعدما أتعبه شامبو سنان الرخيص.. أجل الحق معها.

استيقظت ذات صباح على صراخها. كانت على السطح تنشر

الثياب، وقد انزلقت قدمها عند نزول الدرج وسقطت. سقطت على عجزها، ثم ظل جسدها ينحدر حتى اصطدم بالأرض.

كانت سقطة قاسية، كلّفتنا من جديد «سامر»، فقد شعرت تمارا، حالما لامست الأرض، بشيء ما قد انفجر في رحمها، ثم اصطبغ ثوبها بالأحمر وراحت تصرخ باكية: «الولد، الولد، راح سامر، ابني راح..» وكالمرة السابقة حمدت الطبيبة اللّٰه على سلامة الأم وأسفت لعدم التمكن من إنقاذ الجنين.

- 31 -

نحن معشر الرجال، مهما قرأنا وسمعنا، لن نفهم رغبة النساء في الإنجاب. لن نفهم معنى أن تكون المرأة أمًا، وأن يدرّ صدرها فتقول: «طفلي جائع.»

هذه مشاعر لم نجرّبها، فأنى لنا بفهمها؟!

نحن نضع الأبناء في لحظة نشوة عارمة، بينما الصبر يبكي لطلق الأمهات. ثم وحالما يندلق الصغير من الرحم مغمض العينين كأنه قطة عمياء، وتسمع الأم جِرس بكائه، تبتسم كأنها ملكت الدنيا. تنشّف المرأة عرق جبهتها، وهي ترنو لابن بطنها بانتظار أن تلقمه ثديها، فهل تنتهي الحكاية عند هذا الحد؟

كلا، ستظل تشبر طوله حتى يكبر، وتظل واقفة عند الباب تحسب خطواته. أما حين تدور ماكينة الحرب ويذهب الأبناء إلى الجبهة، فقل إن موقدًا للقلق قد اشتعل في صدورهن ولن ينطفئ حتى يعودوا.

يا اللّٰه كيف تسنّى لك خلق الأمهات، وأي رحمة يدّخرها قلبك لتجود علينا بكائنات رحيمة كهذه؟

أنظر الآن لتمارا، وقلبي يكاد يتفطر حزنًا عليها. لقد مرضت؛ هبط

عليها الوجد مثل غيمة سوداء ثقيلة. حزنت لأنها كانت على وشك أن تكون أمًا، ففشلت للمرة الثانية على التوالي. حاولت طمأنتها بأن «سامر» لا محالة قادم، وأننا ما زلنا شابين، ولدينا من الوقت الكثير. أخذت أعيد عليها الكلام كل يوم. وكانت المرة الوحيدة التي أحصل فيها على تأييد من عمّتي، فالأخيرة خائفة من أن ينهي الغمّ حياة ابنتها.. وهكذا حتى شفيت.

عادت تمارا إلى المنزل أخيرًا، وعاد الأمل بالإنجاب يتجدد. وبعد حين كان لها ما أرادت. غير أنها لم تطلق العنان هذه المرة لنفسها بالفرح، وظلت أصفاد القلق تكبّلها. أقامت في بيت أهلها بشكل شبه دائم، وأمسيت وحيدًا كالأعزب. كان علاج الوحدة العمل، إذ ضاعفت ساعاته، وصارت الثانية صباحًا موعد العودة إلى المنزل. بين الفينة والأخرى أمرّ على تمارا وأصحبها معي لتقضي ليلة وتعود، مع الالتزام التام بالوصايا الطبية؛ ممنوع الاقتراب، ممنوع اللمس. ثم شيئًا فشيئًا صار وجودها معي أكثر من أهلها.

أوصلتها ذات نهار إليهم، فاستقبلتنا «عمتي العزيزة» شاهرة سهمها من جديد. قالت لتمارا بصوت تقصّدت أن يكون مسموعًا: «أكيد جوعانة! عميت عيني على حظك يا بنتي.» فأطلقتُ زفرة وغادرت.

كان النهار يومذاك ساخنًا نزلت فيه الشمس من كبد السماء وراحت تتمشى في الشوارع والأسواق لتشعل أجدادنا. لم أحتمل الدوران طويلًا، أنهيت ثلاثة مشاوير أو أربعة، لا أتذكر بالضبط، وعدت إلى المنزل الذي لم يكن بأقل سخونة من الشارع. ورغم أني كنت قد

اشتريت الأسبوعَ الفائت مبردة هواء من سوق الجمعة، وعلّقتها على النافذة، إلا أن خراب منظومة الكهرباء حال دون الاستمتاع بنفحاتها الباردة. فكما البندول كانت الكهرباء تذهب وتجيء!

شرّعت النافذة وخلعت ثيابي واستلقيت على السرير راجيًا النوم، وما هي إلا دقائق حتى تحولت الغرفة ملعبًا للذباب. كان تل القمامة ناتئًا آخر الزقاق، والويل لمن أشرع النوافذ. أمسكت المنشفة وطردت الذباب، ثم أغلقت النافذة وعاودت النوم في جهنم. بعد برهة من الوقت، استيقظت منقوعًا بالعرَق. اغتسلت بماء هو الآخر حميم من جهنم، فالشمس قد صهرت الخزّان في الأعلى وأغلت جوفه، وخرجت وراء رزقي.

ـ 32 ـ

استأجرني أحدهم إلى شارع الأميرات ذهابًا وإيابًا، ومنحني ضعف ما طلبت. قال إنه عمل فيما مضى سائق تاكسي، قبل أن يفيض اللّٰه عليه بنعمته، إلا أنه لا يحبّذ ركوب سيارة خاصة خشية العين. كان سببًا وجيهًا للضحك على أية حال. أنزلته من حيث أقلته قرب ساحة الأندلس، ولم أشعر بالجوع بعد.

جندي يعتمر البيرية حاملًا حقيبة سفره على كتفه، كان يقف لدى الناصية ملوّحا بيده.

ـ إلى كراج النهضة.

ـ تفضل اركب؟

أوصلته وعدت باتجاه ساحة التحرير. ثم انعطفت شمالًا نحو شارع السعدون، فكان هنالك من ينتظر. أفندي متأنق يغطي رأسه بقبعة من تلك التي يحرص المثقفون على اعتمارها، وبيده جريدة وكتاب.

ـ للمسرح الوطني، صديقي.

ـ تفضل اركب.

حالما جلس حاول إنزال الزجاج ولم يستطع، فقال بالفصيح: «صديقي، شغّل لنا (المذياعِ) ما دام الزجاجُ (عاطلٌ).» مددت يدي ونفّذت ما طلب، وقد حرصت على رفع الصوت.

اعترض:

ـ لماذا ترفع (الصوتُ) يا صديقي؟

ـ كي لا يسمع سيبويه حديثنا ويقتل نفسه يا حضرة الأستاذ.

انتفخت أوداجه ولم يعلّق.

أوصلته، ودرت في حواري الكرادة وما حولها، وأركبت من هناك عائلة خارجة للتوّ من مقام سيد إدريس. عائلة سعيدة من أربعة أفراد. تصدّر الأب السيارة، بينما جلست الأم رفقة بنتيها في الخلف. في منتصف الطريق طلب الرجل التوقف لشراء ما عبّر عنه بالعِدّة؛ بطل عرَق مع كيس فيه لبلبي مسلوق.

شاكسته الزوجة:

ـ لَعَد والزيارة؟!

فردّ ضاحكًا:

ـ ساعة لربّك وساعة لقلبك.

ثم التفت نحوي:

ـ أبو الشباب ماذا تقول؟

ـ صحيح جدًا.

فعاد، ليخاطب زوجته:

ـ وهذه فتوى من الأخ.. هاهاها.

فضحكوا مثيرين بذلك غبطتي.

ماذا لو كانت لي عائلة سعيدة كهذه؟!

أوصلتهم إلى باب دارهم في حي المشتل، دعوني لمشاركتهم العشاء، فشكرتهم ومضيت. توقفت عند الناصية وتناولت الفلافل واللبن، ثم ختمت بالشاي وظللت أعمل حتى انتصاف الليل.

في الطريق إلى المنزل كان صوت عمّتي ق رنّ في أذني، وشعرت أني لن أنام ما لم أتناول كأسًا على أقل تقدير، فأدرت المقود وسرت نحو حانة السحاب.

- 33 -

أفضل ما حصل في بغداد أن الخمر ظلّ كالكلب وفيًا لأهله؛ لم يغب عن الحانات ولم يرتفع سعره. تقول النمائم إن الحكومة تجاهد للإبقاء على أسعار الخمر في متناول اليد خشية أن تختلط الموازين وتثقل كفّة الحشيش. الخمرة حلال، الحشيشة حرام.. تحيا الحكومة.

تفاجأت بحارس الحانة يمنعني من الدخول بدعوى وجود زبائن مهمين لا ينبغي الاقتراب منهم! ولأنّه كان قد سكّ أسنانه حين ذكرهم، رحلت دون اعتراض يُذكر. ذهبت، نكايةً به، إلى حانة أكبر. حانة ترفع لافتة فيه صور لمطربين يحيون الليل بجميل أصواتهم. حاولت الركون أمام الباب، دون جدوى، فالناصية مزدحمة بالسيارات الفاخرة، مما اضطرني إلى إيداع البيجو في أحد الأزقة القريبة، والحج سيرًا على الأقدام. عقبة أخرى واجهتني لدى الباب؛ حاجب الملهى، لم يأذن لي بالدخول بدعوى أن الإدارة تمنع استقبال الزبائن دون حجز مسبق. «ممنوع» قال ويده في صدري. «اذهب من هنا، أحسن لك.»

نظرت إلى السماء وشكوت اللّه عباده، فأهداني سبحانه لحظة انفراج نادرة؛ حيث انبلجت الباب وخرج منها زبون بدا مهمًا، كان في وداعه موظف التشريفات «المايسترو». اعترضت الأخير شاكيًا

فضاضة الحاجب، غير أنه لم ينصف شكواي، وقال إنها لوائح غير قابلة للتجاوز. ثم راح يتحدث عن الحجز المسبق وكأنها رحلة طيران لا حفلة أنس. تنبّهت لحركاته الرخيصة، ووضعت في جيبه بخشيشًا، فبال على اللوائح وشرّع الأبواب.

أجلسني حول طاولة في ذيل الملهى، تحوز موقعًا مرتفعًا يتيح رؤية شاملة لا يقدر عليها زبائن الصفوف المتقدمة. كانت طاولة مشتركة، سبقني إليها زبون مخضرم يدّعي أن ملاهي بغداد شيّدت فوق كتفيه. شخص لطيف في أواخر الخمسينيات من العمر، أملط الوجه، يرتدي بدلة أكبر من حجمه ثلاث مرات، ورائحته نتنة. حالما رآني قباله، دحرج بضع مزح قصيرة من تلك المبنيّة على مفارقات موغلة في السذاجة: «واحد بلع موس، جرح مشاعره.. واحد شد حيله، انقطع.. واحد عيونه خضر، شرهن على الحبل..» وعندما فشل في إضحاكي، شعر بالإحراج، فانتقل إلى خانة الألغاز والأحاجي الساذجة هي الأخرى: «خالتك أخت أمك، ابن أختها من يكون؟» وهكذا.

في الواقع، كنت منافقًا مع جليسي النتن ذلك، إذ جاريته ريثما جفّت قطرات الخجل على جبيني وتلاشت رهبة الأمكنة الجديدة، سيما وأني لم آلف من قبل مكانًا كهذا.

صخب وأضواء، وأجساد نصف عارية ترقص على خشبة مدوّرة تشبه السيرك. في المقدمة عرّيف حفل برتبة قوّاد، يستر صلعته ببار وكة رخيصة، ويرتدي بدلة حمراء لامعة. كان يحيي بواسطة اللاقط زبائن الدرجة الأولى المتحلقين حول الخشبة بطاولاتهم العامرة بالمازة

والشراب. وبعدما ذكرهم بأسمائهم وألقابهم واحدًا واحدًا، ومجّد عشائرهم ومدنهم، تراجع بضع خطوات إلى الوراء استعدادًا لتقديم الفقرة التالية:

ـ رحّبوا معي بالنجم اللامع، صاروخ الغناء العراقي، الفنان حسام الأصيل.

فنطّ من خلف الراقصات شاب يرتدي بدلة سموكن أرجوانية اللون، ويضع على رأسه الكثير من الجلّ. نثر التماسي على الجمهور: «مساء الخير جميعًا.. مساء الحب.. مساء السعادة..» ثم حيّا، قبل الشروع بالغناء، أصحاب الطاولات المتقدمة، ليردّوا التحية على طريقتهم الخاصة؛ الرشق بالدنانير، على ضجيج الموسيقى المتصاعد من جديد. لقد رشقه أولاد الحرام بمئات الأوراق النقدية، ومع كل رشقة يضع يده على رأسه كعلامة امتنان.

عجيبة هذه البلاد؛ نهار عفيف، وليل ماجن!

المثير للدهشة أن أصحاب الليل يطشّون المال وكأنهم في سباق محموم؛ فذلك التيس الجالس شرق المسرح، نعم ذلك الساقط البدين، لقد رشق المغني بأربع رزم سميكة، بينما فرّط تيس ثان، يرتدي غترة وعقالًا، بخمس رزم وهو يضحك! توالت هستيريا الطشّ، وارتفع بين الأقدام تل الدنانير، وصعد الندل لجمعها في أكياس قماشية قبل حملها إلى دهاليز الملهى. أما المغني، فافتتح وصلته بموّال طويل متخم بالعُرَب، ومتبوع بأغنية ريفية ألهبت الحماس، فاهتزّت الأكتاف

والأرداف معًا، وتصاعد صوت الطبول حتى كادت المسرح أن يسقط بمن عليه.

راقصة ترتدي فستانًا أخضر، ترجلت ملبيةً نداء زبونين يشغلان طاولة في المنتصف. جلست في حضن أحدهما، تشاركه تدخين السيجار الفاخر، وهو يداعب نهديها. راقصة أخرى نطت في حجر التيس البدين، وثالثة بركت على ركبتيها وشرعت تؤدي على الخشبة رقصة تشبه لطم النادبات في فيلم الرسالة. التمع من جهة الرواق كشّاف أخضر، تنادى له آخر من غرب الصالة، وتلك إشارة عرفتها للتوّ، بين موظف التشريفات الملقب بالمايسترو وأحد الندل، يتم من خلالها الوصول إلى واحدة من الطاولات المحجوزة. تكرر الأمر مرات عدة، وفي كل مرة يمرّ المايسترو متبوعًا بزبون طازج سيتم حلبه كالماعز.

بالنسبة إليّ، لم أطلب سوى زجاجة بيرة، سأمزّها بالريق وأغادر، إذ لا أظن بأن بطانة جيبي كافية لتغطية مصاريف السهر في مكان كهذا.. ما الذي ورّطني؟!

ـ هل أنت معلّم عربي؟

باغتني حضرة الجليس بالسؤال، فقلت:

ـ لا.

ـ ماذا إذن؟

ـ سائق تاكسي.

ـ كان اللّٰه في عونك.

ـ شكرًا، لكن لماذا معلّم عربي؟!

ـ لأن شكلك محترم.. بصحّتك.

ضحك، وقال للنادلة التي اقتربت منه وفتحت له زجاجة الويسكي:

ـ صبّي كأسًا لجناب الدكتور.

لقد بدا واضحًا أن الرجل قد تنبّه لحالي، فقرر التخفيف عنّي وإدخالي في أجواء السهر.

ـ أي دكتور يا رجل؟! قلت لك سائق تاكسي.

ـ وإذا سائق تاكسي، بقت عليك؟ نص البلد دكاترة، والنص الثاني يحضّر دكتوراه.

ـ وأنت؟ من أي نص منهم؟

ـ نص خالتك.. اضحك خرا بيومك.

«صبّي له.. صبّي..» كرر الأمر على النادلة، وهو يضحك. دنت الأخيرة مني تملأ الكأس، وقد داعبني عطرها، فغمزني الجليس راسمًا في الهواء علامة «أوكي».

«شكرًا، آنسة.» همست في أذنها، فأطلقت ضحكة عاهرة.

كانت فقرة صاروخ الغناء العراقي قد انتهت، وفرغ المسرح من الراقصات لدقائق. استراحة قصيرة، نطّ فيها العرّيف من جديد مرحّبًا بزبائن الليل، من ذوي العروش والكروش المميزة، بينما ظل جليسي يلقي بنكاته السخيفة حتى ثملنا. حينها نشب عراك قرب أذني؛ أخبرت

أم تمارا أن ابنتها ليست جائعة كما تظن، وأننا كنا قد أفطرنا قبل زيارة قصرها المنيف، فهزّت يد الهزء، وشتمتُها. تدخل زوج ابنتها الكبير قائلًا:

ـ احترم نفسك، عزيز، ولا تمدّ يدك على عمّتي.

فلكمته على أنفه:

ـ ما دخلك أنت يا ابن القحبة؟

ثم لم ينته عراك الوهم حتى سحبتني النادلة من ياقتي كالخروف. سرنا في دهليز شبه معتم ودلفنا إلى غرفة حمراء. لا أتذكر ما جرى بالضبط حينها، لكن جلبة كانت قد ارتفعت في الأثناء، وتم اقتيادنا إلى السجن.

ـ 34 ـ

كانت الدعارة هي التهمة هذه المرة، زادها أني بلا هويّة، إذ نسيتها في القميص الآخر، فصرت من هذا وذاك في عرف الحكومة قوّادًا مجهول الهوية!

«ماذا بعد يا عزيز؟!» تساءلت في سرّي وأنا منزوٍ في تلك الزنزانة الوضيعة. كان الإذلال أكبر من أن يحتمل، فالصفع والشتائم والنيل من شرف الأمهات لم يتوقف. تكوّرت في الزاوية لا ألوي على شيء سوى التحديق في الأرض. أفكار تجيء وأخرى تذهب، عراك ينشب وعراك يخمد، صراخ دون صراخ وشتائم تتطاير من فم مطبق:

ـ لمَ تفعل بنفسك كل هذا يا عزيز؟!

ـ لا أدري!

ـ إلى أين سيقودك الخمر؟!

ـ اصمتْ ودعنا نرى.

ـ ماذا تريد أن ترى؟ أحمق مع سبق الإصرار والترصّد.

آلمتُني، فصرختُ بوجهي:

ـ كفى يا ابن الكلب!

وإذ ذاك التفت الزملاء ناحيتي، وراحوا يضحكون. واحد فقط جاء يربّت على كتفي قائلًا: «اصبر يا أخي، شدّة وتزول.» لكنه لم يحدد الوقت، فسألته:

ـ متى تزول؟

ـ تزول عندما تزول.

الغريب أنهم أخذوا بالتبخّر شيئًا فشيئًا، حتى لم يبق في النهاية سوانا.

تم التحقيق معنا، واقتنع السيد المحقق، بعد رشقة محمودة من الصفع والتنكيل، ونُقلنا إلى سجن التسفيرات. قضيت هناك عشرين يومًا تقريبًا، ليعثر عليّ خالي جبران في النهاية ويحرّرني من أسري.

كان قد قدّم، مع إثبات الهوية، رشوةً لم يسفر عنها. وعندما سألته، اكتفى بالقول: «لا يهم، المهم أنك خرجت بالسلامة.»

- 35 -

لم تنظر تمارا من بعدُ في عينَي. جاءت في غيابي لتحمل أغراضها وتترك لي قصاصة الهجران: «أنا في بيت أهلي.» أقسمت لها ألف مرة أني لم أخنها، وأني كنت ثملًا، لكنّ حكم الخيانة كان قد صدر وصُدّق.

قضيت شهرًا من الهمّ لا يُنسى، جرّبت فيه كل الطرق لاستعادة تمارا، دون جدوى. وعندما سقط ما في يدي قصدت خالي جبران، لما بينه وبين وتمارا من صداقة طيبة.

إلا أن باب المكتبة كان وقتذاك موصدًا!

«سنعود بعد قليل.» تقول اللافتة من خلف الزجاج. انتظرت ذلك القليل الذي طال وتمدد. وكان الغريب في الأمر أن جاره، بائع الأنتيكة، هو الآخر قد أغلق الباب الزجاجي معلنًا العودة الوشيكة!

«يا ترى أين ذهبا؟» تساءلت غير مرة وأنا أحرق السجائر واحدة تلو الأخرى، حتى التمعت من بعيد جبهة خالي. «عزيز بن عوّاد عندنا، يا مرحبا يا مرحبا.» ردد حين رآني. ثم فك الباب ودخلنا،

وجلس الرجلان ليلعبا طاولة الزهر. كان الجار قد اشتراها من سوق هرج لبيعها والتربّح منها، لكنهما تراهنا عليها في الطريق، وها هو النزال قد بدأ. لعبا بهدوء للوهلة الأولى، ونقلا الحجر على مهل، ثم حمي الوطيس وثار غبار الحرب.

كانت حرب أعصاب أكثر منها لعبة بين صديقين، إلى حد أن صوتهما قد ارتفع وصار بإمكان المارّة سماعه. حمدًا للّٰه أن زبونًا لم يتورط بدخول المكتبة، وإلا لقال له خالي من دون أن يرفع رأسه: «اذهب من هنا، لا توجد كتب للبيع.»

بعد خمس جولات كسب جبران الملك الرهان، وحاز على الطاولة. أتذكر أنه، إمعانًا في إغاظة خصمه، كان قد تناول خرقة قماش وظل يلمّع الخشب مردّدًا: «أنتيكة واللّٰه أنتيكة.» والأخير يجيب: «بالعافية عليك.» ثم غادر وبقينا وحدنا.

ـ ما بك؟

باغتني بالسؤال، فقلت:

ـ لست بخير، تمارا رحلت.

ـ طبعًا ترحل.. أنت الآن خرّيج سجون رسمي. من ترضى العيش مع خرّيج سجون رسمي؟!

ـ لا، الموضوع أكبر.

ـ ماذا فعلت يا ابن كميلة؟ احكِ.

ـ ربما خنتها.. لا أدري، لا أتذكر!

ـ يبدو أنك فقدت عقلك! من يدري إذن، أمي؟ ولماذا حكيت لها الحقيقة؟

ـ هل الكذب أفضل برأيك؟

ـ أتحدث عن الكذب الأبيض، لا تكن مثاليًا برأسي.. لقد أمسكوا بك في ماخور دعارة، هل نسيت ذلك؟

ـ ما أدراني، هذا ما حصل!

لم يقصّر خالي جبران بكلمات التأنيب، ليستدرك في النهاية:

ـ على أية حال، اتركها الآن في بيت أهلها. دعها ترتاح قليلًا، ولكل حادث حديث.

سمعت الكلام وطويت الأيام نادمًا. لم أذهب إلى تمارا سوى مرتين أو ثلاثًا، وكان الرفض حاضرًا. حتى رسالة الغرام الطويلة التي كتبتها إليها، مزّقتها ورمتها في وجهي. عدت خائبًا وظللت وحيدًا كالأجرب إلى أن حانت لحظة ولادتها. اللحظة التي صرت فيها أبًا منحوسًا لولد منحوس.

أجل، فكما أورثت سامر الأنف الكبير، أورثته النحس؛ إذ ولِد عليلًا بقلب معيوب. كان الأزرق الباهت يلوّن شفتيه وأظافره، وكانت أنفاسه ثقيلة. قال الطبيب إنه مصاب بعيب ولادي أسماه الجذع الشرياني، وأخبرنا عن فتحة بين البطينين تحول دون تدفق الدم بشكل سليم. الأمر الذي وضع الصغير، مذ يومه الأول، تحت العناية.

حملته وكان خفيفًا كالريشة. قبّلته في جبهته وأعدته إلى العمّة الغاضبة. أما تمارا، فتعاملت معي بمنتهى الإهمال إلى حد أنها لم تردّ التحية!

أدركت في النهاية أني أضعت عائلتي الصغيرة، وعشت الندم كما ينبغي. غير أني واصلت عيش المهزلة، حيث لا مفر منها، حتى جاءت ليلة الحادي والعشرين من شهر كانون الأول 1999.

الفصل الرابع

ـ 36 ـ

كنت على مقربة من حارة النقاشين، وقد بدت بغداد في تلك الليلة، على غير عادتها، خالية ومظلمة. فنحن في الربع الأخير من شهر كانون الأول، وأيام كهذه تتزين فيها المدينة استعدادًا لأعياد الميلاد والسنة الجديدة، لا سيما ونحن على أعتاب قرن جديد.. لكنها ليلة غريبة تنذر بالعجب!

دلفت إلى الحارة علّ من يروم الذهاب هنا أو هناك، فنط أحدهم من بين العتمة واعترض طريقي. كان شيخًا يرتدي معطفًا صوفيًا خلقًا، ويعتمر كوفية حمراء مهلهلة، وبيده قفة خوص وعصا!

للحظة عزمت على اجتيازه خشية أن يكون قاطع طريق، لكنها فكرة عابرة سرعان ما انطفأت، فجلبابه جلباب درويش مسالم، وعمره لا يجيز له العدوان وإن نوى ذلك.. لهذا وذلك توقفت لأجله.

«تفضل يا حاج» قلت وأنا أنزل الزجاج، فأطلّ بذقنه الأبيض ليلقي التحية:

ـ السلام عليكم.

ـ عليكم السلام.

ران على وجهه انزعاج من رائحة الخمر التي تعبّئ السيارة، ومال إلى الوراء قليلًا.

بادرته:

ـ إلى أين يا حاج؟

ردّ بثقة:

ـ إلى اللّه.

«لا ينقصني إلا المجانين!» تمتمت، وأجبته:

ـ يا حاج، لا تلعب بعقلي اللّه يخلّيك، قل وجهتك وخلّصني.

ـ مشوار قريب، للّه فيه رضى ولك فيه أجر وثواب.

«أجر وثواب؟ يا حبيبي!» تمتمت ثانية، فردّ وكأنه قارئ شفاه عتيد:

ـ لا تقلق، سأعطيك ما تريد.

ـ حسنٌ، تفضل اركب.

ركب وأغلق الباب. كانت نوافذ السيارة غير محكمة تمامًا، وجهاز التدفئة لم يزل خارج الخدمة، فرفع الرجل ياقة معطفه وظل هادئًا يقرأ الأذكار ويرسم بالإشارة خارطة الطريق. أما أنا، فالتقمت حبة هال وطحنتها بأسناني في محاولة فاشلة لستر رائحة الخمر الفائحة مع الأنفاس.

أرعدت السماء وهبطت قطرات من المطر، تلاها نثيث ناعم بلل

زجاج السيارة، فشغّلت الماسحات وواصلت القيادة إلى حيث يريد عجوز الليل ذاك.

خرجنا من بغداد وقطعنا شوطًا طويلًا نحو الشمال الشرقي باتجاه الخالص، ثم انعطفنا في جادة ترابية تجانبها البساتين. كل ذلك والشيخ يتمتم بالذكر كأنه في جنازة! الأمر الذي أبدل الجو داخل السيارة وجعله غائمًا، كخارجها، ملبدًا بعلامات الاستفهام.

إلى أين نذهب في هذا الليل الماطر؟

وماذا تحمل في هذه القفة اللعينة؟

ولمَ كل هذه الأذكار؟

لكن السماء تنادت لتنقذه مني، إذ أرعدت بقوة هذه المرة، وهطل مطر غزير، فكبّر وتشاغل بالدعاء. أوحلت الأرض وانزلقت الإطارات وكادت السيارة أن تغرز في الطين. حينها فقط قطع طقوسه وربّت على الهواء بكفّه مرددًا: «على مهلك.. على مهلك..» قبل أن يعود للاستغفار والتسبيح.

«حاضر يا حاج، لكن بربّك متى نصل؟» قلت وتابعت شمالًا في طريق ريفية يعلم اللّٰه كم كانت سيئة وبعيدة! «انتهى الكثير وبقي القليل.. الصبر نعمة، بني.» أجاب. وبعد صبر كاد ينفد، ومسافة فرسخ من مدينة الخالص، أوقفني الشيخ على مشارف واد تتوسطه سدرة وارفة الأغصان تتناثر حولها قبور بلا شواهد. لم يكن واديًا سحيقًا، على أية حال، بل ما يشبه المنخفض من الأرض، أو الحفرة الكبيرة المسوّرة بالحجر.

أطفأت المحرك، فقال وهو يعالج مقبض الباب:

ـ لن أتأخر عليك.

ثم حمل القفة وترجل مردداً:

ـ بسم اللّٰه وعلى بركة اللّٰه.

فكرت من فينا المجنون؛ أنا السائق الثمل الذي ساير شخصًا غريبًا يراهن على خلو جيوبه من المال، أم زائر المقابر في هذه الساعة من الليل؟! إلا أني، رغم ذلك، ظللت أراقب من وراء الزجاج ما يجري، فالنفس إذا سايرت لن تتوقف ما لم تبلغ النهايات. أخرج الشيخ من جيبه مصباحًا، وسار بعصاه مخترقًا الوحل لينحدر على مهل في المقبرة. خلته سيقف عند قبر من القبور ليشتل فوقه غصن آس ويقرأ الفاتحة ويعود، لكنه لم يفعل، بل وضع القفة جانبًا وتناول جاروفًا كان متكئًا على جذع السدرة وشرع بالحفر!

«قاتل اللّٰه الصبر.» رددت في سري ولحقته.

كانت الأرض موحلة تمامًا، والسماء غاضبة تواصل رشق المطر. انزلقت عند الحافة في الطين، وشتمت حظي، ثم استقمت وواصلت حتى أدركت الشيخ. وقفت وراءه وسمعته ينشد شعرًا للحلّاج، أحفظه منذ أيام الجامعة:

لا تلُمْني فاللومُ مِنّي بعيدُ

وأجِرْ سيّدي فإنّي وحيدُ

«لمن هذا القبر يا حاج؟» ـ سألته ولم يجب!

يا نِعمَتي في حياتي

وراحَتي بعدَ دفْني

مالي بغيرِكَ أُنسٌ

مِن حيثُ خَوفي وأمْني

انتهى من الحفر أخيرًا، ليعمد بعدئذ إلى قفة الخوص ويخرج منها نعشًا بطول ذراع. أرخى اللفافة عنه وأظهر وجه الميت. كانت طفلة رضيعة يلمع تحت البرق وجهها، أنزلها برويّة في حفرتها وأخذ يحدّثها بودّ: «نامي قريرة العين يا ابنتي، فإن سألك الملكان، قولي لهما أنا غصّة الرب، نرجس.» ثم أغلق عليها القبر وبسط يديه لقراءة الفاتحة، قبل أن يسبقني إلى السيارة.

أما أنا، فتسمّرت أحدق في قبر فارغ عند السدرة، غير عابئ بوابل المطر فوق رأسي. لمن هذا القبر إذن؟! وما هذه المقبرة الغريبة؟! ثم من «نرجس» التي دفنها للتو ولقّنها بكلمات قصيرة؟! عدت خلف المقود، وكان الشيخ جالسًا وبيده مصحف مظروف في جراب بني عتيق. أدرت المحرك وعدنا قاصدين محلة النقاشين كما طلب.

كنت مبللًا بالمطر والأسئلة، ولم أستطع مع الشيخ الغريب صبرًا. سألته عن المقبرة، فقال:

ـ هذا وادي الفراشات.

ـ ونرجس؟

ـ فراشة زهدت بها الدنيا، فأعادها الرحمن إليه سبحانه.

قفز الشيطان فوق لساني، وقلت معترضًا:

ـ لماذا خلقها من الأساس إذن؟! ولماذا تركها وحيدة ما دام خلقها؟!

راوغ الشيخ وسد نوافذ الكلام:

ـ يبدو أنك مكويّ بنار الوحدة.. حسبنا الله!

أعدته إلى حارة النقاشين، فمنحني خمسة آلاف دينار وهمّ بالنزول. لكني حاولت ألا أدعه يرحل منتصرًا، فقلت:

ـ بالمناسبة، أنا لست وحيدًا كما تظن، حولي الكثير من الأحبة.

حينها ترجّل قائلًا:

ـ احتفظ بهم كي لا تقف عاريًا في الريح.

ثم أغلق الباب ورحل، ناسيًا المصحف على المقعد. التقطته وناديت خلفه: «المصحف..» لكن دون جدوى، فقد غاص في عتمة الأزقة وتلاشى.

- 37 -

لم أواصل العمل، فمنظر الجثمان الملفوف بالكفن هيج الفزع في صدري، كما أن ثيابي مبللة وما بقي من الليل أقل مما ذهب، لهذه الأسباب عدت إلى المنزل.

مضيت وقدمي على كابس الوقود، بينما عقلي يجترّ سؤالًا حول نرجس والجناية التي جعلتها تموت نبيذة في هذه البلاد العجيبة!

وصلت المنزل أخيرًا. وضعت المصحف على الطاولة في الصالة، وركضت صوب الحمّام لإفراغ مثانتي. كان المنزل باردًا، والسقف يقطر ماء ويبلل السجادة. وضعت الجردل تحت القطرات النازلة، ودلفت إلى غرفة النوم.

أبدلت ثيابي وكنت كالسعفة أرتجف. ما كان لي مسايرة الرجل العجوز، وقطع كل هذه المسافة. لو اعتذرت لكنت الآن نائمًا، ما لي ووادي الفراشات! ثم ما هذه «يبدو أنك شخص وحيد»؟! هل قرأ الوحدة على جبهتي؟ لماذا يظنني غصنًا سقط من الشجرة وتعفن؟ صحيح أن شجرة الأحباب تواصل نزع أوراقها وكأنها في خريف خجول ومستمر، لكني لست الممثل الوحيد في هذه المسرحية المسماة بالحياة.

أشعلت المدفأة الكهربائية ذات الشمعتين وتدثّرت قبال ضيائها الأحمر، وغفوت. كانت غفوة قصيرة، استيقظت منها على بكاء أطفال لا وجود لهم من حولي! اعتدلت وكنت أتصبب عرقًا. أسدلت جفنَي كمن يجري اختبارًا بقوة الإصغاء، فهجست الصوت من جديد وإن كان أبعد هذه المرة.

«أي مزاح ثقيل هذا يا رب؟!» تمتمت وأنا أهم بمغادرة السرير بغية اكتشاف ما يجري. سرت على أطراف أصابعي ودرت في الصالة حول نفسي. ليس ثمة غريب سوى مصحف يغفو بسكينة فوق الطاولة. فتّشت الحمّام والمطبخ فكانا بريئين من دواعي الشك والريبة. من أين تأتي الأصوات إذن؟!

حملت المصحف إلى السرير طمعًا في الطمأنينة، لكن دون جدوى، فقد ظلت الأصوات تسري كدبيب النمل على عنقي وتنسكب في أذني. تجرأت وأخرجته من جرابه لقراءة بعض الآيات، فتفاجأت بأنه لم يكن مصحفًا، بل دفترًا، دوّنت على صفحته الأولى كلمات بالحبر الأزرق:

«هذا ما وجده بدري النقاش في رحلة البحث عن الفراشة.»

كان دفترًا عجيبًا؛ شعرت بقوة هائلة تجتذبني إليه. رميته من يدي وتراجعت إلى الوراء فزعًا. سأحيله في الصباح رمادًا وأنثره من النافذة، هذا ما قررته وصدري يرتفع وينخفض. لكني بدلًا من ذلك رفعته، ثم قلبت الصفحة وشرعت بالقراءة:

«في ليلة من ليالي بغداد البعيدة، خرجت امرأة منذورة بالفزع تحمل تحت عباءتها لفافة ضمّختها أخلاط بدن أملد، تسللت بها بين الحواري حتى وصلت مقبرة باب الدير العتيقة، المتاخمة لمقام الشيخ معروف الكرخي. أنزلتها بين القبور ولاذت بالفرار، دون أن يراها أو يتبعها أحد، فحتى ابن اللفافة لم يبكها ولم يتعلّق بثياب رحمتها كما يفعل الرضّع في العادة.

لقد ظل الصغير هادئًا تحرسه الأرواح وتعزف له ترانيم الخلود. ثم امتدت له يد من داخل المقام ومسّدت على رأسه، وانهمر صوت حانٍ كنثيث المطر ليغسله بالطمأنينة. هدهدت الأصوات منامه حتى اندلق لسان الفجر، وجاء الناسكون يقدّمون قرابين صلواتهم. تحلّقوا حوله يتمتمون باسم الرب العليّ، فرفعه خادم المقام من بينهم وأسنده قرب الضريح شاكيًا للّه جريرة عباده.

آنذاك، كان في المقام نقاش يصل الليل بالنهار بغية إتمام نقوش المحراب والمئذنة. وقد هاله تفرّق الناس بعد الصلاة، وبقاء الرضيع وحيدًا عند شبّاك الضريح. اقترب منه ورفعه. كان الصغير حسن الوجه مضيئًا كالبدر في تمامه، رموشه طويلة، وتحت أذنه اليمنى وحام على هيئة عنقود عنب. أمّنه النقاش في المحراب ريثما يفرغ من عمله، ثم حمله إلى المنزل واتخذه ابناً. أسماه معروف تيمنًا بصاحب المقام، وعمّده بالعلم والمعرفة. علّمه القراءة والكتابة والحساب والفلك والنقش على الحجر. كما حشا قلبه الصغير بحب القرآن والشعر والموسيقى. لكنّه رغم ذلك ظل عاجزًا عن

حمايته من وسم «ابن الحرام» الذي يلاحقه في مدينة لا تحبّ كتم الأسرار.

أضحى الصغير بذلك فرّارًا صوب مقبرة باب الدير، يجلس بين القبور ويصغي لحكايات الموتى. فالموتى كالأحياء لهم حكاياتهم المثيرة للدهشة والفضول، غير أنها تبلغ من الصدق ما يصفع زيف الوجود، فهؤلاء الممددون في قبورهم لا يكذبون ولا ينافقون، كما أنهم لا يزوّقون وجه الكلمات بمكياج الأنا ولا يُلبسونها براقع الغرور.

لسان الموتى أصدق من شمس النهار، وليس ثمة مخابئ يسترون بها عهر الفضيحة. لذلك أدمن الصغير صحبتهم وأمسوا عزوته. يجده النقاش بينهم، فيربّت على كتفه ويعيده تحت جناحه. لكن دوام الحال كذبة يفضحها الفناء، فبعد حفنة من السنين، ذهب الصبي ولم يعد. رحل بعيدًا ليضمّخ حياة أبيه باللوعة والأسى.

هام النقاش إذ ذاك يطوي الدروب بحثًا عن ربيبه. فكان أن تعثر بالكثير من أقرانه ممددين على أكتاف المزابل وسواقي البساتين وشواطئ الوحشة. صغار لم تمهلهم الحياة الوقوف على أيكها ولو بعض يوم، فمضى يدفنهم في وادٍ بعيد لا تدركه الأبصار والألسن، وكان كلما دفن أحدهم طارت من قبره فراشة وظلّت تحوّم في الوادي.»

- 38 -

دوّى انفجار في محوّلة الكهرباء، وغرقت في العتمة. كان صدري يرتفع وينخفض، وقد تراءت لي قبور الوادي، حتى أني شعرت بأن الورق قد تخشّب تحت يدي وغدا نعوشًا صغيرة!

سيطول أمد الظلام، فانقطاع الكهرباء ناتج عن عطب مفاجئ، ولا يندرج تحت جدول القطع المبرمج. استهديت بنار القداحة لجلب الفانوس، ثم أشعلته وعاودت القراءة. كانت الصفحات شبه فارغة، وما خلا عبارات قصيرة كتلك التي تنقش على شواهد الموتى ليس هنالك ما يُذكر! ولربما أريد لها أن تكون شواهد حقًا، فلكل واحد أفردت صفحة، وروّست بـ «هنا يرقد»!

هنا يرقد أصيل

هنا يرقد باسم

هنا ترقد سمراء

هنا ترقد جنان

هنا يرقد زاهد

ظللت أتلو الأسماء حتى غفوت. لكني هذه المرة لم أستيقظ إلا والشمس مشرقة.

كانت الغرفة باردة، وعظامي تئن، غير أن نفحات الحمّى، التي ظلت تجيء وتذهب حتى الفجر، تلاشت وهذا يكفي. أزحت الدفتر من على صدري ومضيت صوب الحمّام. أفرغت مثانتي وشطفت وجهي، وقد شعرت أن رائحتي نتنة. لا بأس، فالهلع مُنتِن، والدهشة تستدر العرَق حتى في الشتاء.. ما رأيته البارحة أفزعني.

سخّنت قدر ماء، وسكبته في الطست، ثم فتحت عليه الصنبور حتى اعتدل. جلست على التخت ورحت أفرك جسدي بالليفة والصابون وأصبّ الماء بهدوء خشية أن يفوتني طرق باب أو صوت ما، فعقلي ما زال هناك؛ في وادي الفراشات. أنهيت فصل الاستحمام ولففت أسفلي بالمنشفة وخرجت. أشعلت المدفأة النفطية في الصالة ورحت أتقلّب أمامها مثل رغيف خبز حتى لسعني هسيسها. شعرت بالدفء أخيرًا، وهذا أجمل شعور قد يداهم المرء في حياته، فالبرد جحيم وإن تجلّى بمظهر شديد الرومانسية.

ارتديت ثيابي ثم أفرغت الجردل وارتقيت إلى السطح لنشر السجادة على الشرفة. كان المطر قد توقف، وضوء الشمس ينسكب على بغداد كأنه ثوب زفاف. سيارة حوضية تشفط الماء من الزقاق لتسهل الحركة، وعمّال الكهرباء منشغلون بإصلاح العطب الذي أصاب المحولة، والناس يركضون خلف أرزاقهم.

لم تكن لي رغبة في الطعام، لكن قهوة الصباح صلاة واجبة. ارتديت البيجامة ودلفت إلى المطبخ لإعداد فنجان من شأنه القضاء على بقايا صداع الأمس. أنزلت الدلّة النحاسية المعلقة بجناح المشبك

وملأتها بالماء. أوقدت تحتها نارًا هادئة وسكبت فيها ملعقتين من البن. حرّكتها بالملعقة على مهل وتركتها، دون أن أبتعد. وكما فعلتُ في المرة الأولى حرّكتها ثانية وتركتها، ومرة بعد مرة حتى تكثفت وبانت ملامح وجهها. ارتفع الوجه قليلًا وناهزت الغليان، فأبعدتها عن العين وأطفأت الطباخ. سكبتها في الفنجان وجلست أرتشف على مهل، فالقهوة بنت الوقت كما يقول أهلها.

كان عقلي منشغلًا بأولئك المنبوذين الذين ماتوا بلا ثواكل ودفنوا من غير مراسم تشييع، يتساءل أي ذنب عظيم اقترفوا، لتنبذهم الحياة هكذا؟! وأي غصة تلك التي اعترتهم وهم يشرفون على الرحيل؟! تِك تِك.. طُرق الباب، وانتابني الهلع.

فزّة أفلتها جسدي مرغَمًا! عاود الطرق، وفتحت. كان حسن، ابن بائع الشاي قرب المكتبة. لا بد أن خالي جبران قد أرسله في طلبي. عشرة أيام مضت على آخر زيارة، وهذه مدة كافية لاتهامي بالنذالة والجفاء. سيغلق المكتبة ويأتي لشتمي إن لم ألبّ دعوته.

ـ ها، حسوني؟

ـ عمو عزيز، خالك يريدك.

ـ حاضر، قل له عشر دقائق وأكون عنده.

أجبت رسول خالي، وشرعت بلملمة المنزل. شطفت الفنجان والدلّة وأعدتهما إلى مشبك الصحون، ثم أطفأت المدفأة ودخلت غرفة النوم. فتحت خزانة الثياب، فانفك المصراع المجاور واندلقت

بعض الكتب. صار لزامًا إخراج هذه الأكداس من حبسها ووضعها في الصالة على رفوف تليق بها.

يؤلمني أن تنطوي أطراف الكتب أو تتخلخل كعوب أغلفتها، ناهيك عن المطاردة اليومية الجارية مع الفئران، وضرورة تفقد المصائد بين الفينة والثانية.

أعدتها وبالكاد أغلقت عليها. ارتديت ثياب الخروج، وأخرجت من الدرج لفافة النقود الصغيرة، دسستها في جيب السترة، وغادرت قاصدًا المكتبة.

ـ 39 ـ

ـ صباح الخير.

ـ صباح النذالة.

ها نحن بدأنا!

ـ مشغول يا خال، صدّقني.

ـ أعرف أنك مشغول يا آينشتاين، لكني على طريقك.

سعلت مرتين أو ثلاثًا.

ـ صدقت، آسف، حقك على راسي.

ـ دع رأسك الآن، لا نحتاجه.. ما بك تسعل؟

ـ الظاهر برد.

ـ عندك حرارة؟

ـ لا أظن، لكن عظامي توجعني.

ـ مممم، أكلت؟

ـ لا.

ـ ولا أنا، هيا بنا إذن.

ـ إلى أين؟

ـ امشِ وأنت ساكت.

ذهبنا إلى المطعم وتناولنا شوربة العدس، وفي طريق العودة، توقف خالي أمام دكان «المضمّد أبو صلاح.» كان الأخير جالسًا خلف طاولة فقيرة يعتليها جهاز لقياس الضغط وسمّاعة طبية. سلّم عليه وقال: «أبو صلاح، اخبط له إبرتين، اللّه يخلّيك.»

قالها وهو يضع يده في ظهري ويدفعني برويّة إلى جوف الدكان.

ـ خالي!

ـ لا عليك، ستعود مثل الحصان.. انزع.

لذت خلف الستارة وأنزلت سروالي، فمنحني الرجل إبرة مخلوطة وفرك مؤخرتي مرددًا: «بالشفاء.» ثم عدت رفقة خالي إلى المكتبة وشرع يحدثني عن نيّته نقل المكتبة إلى شارع المتنبي. كان يشتكي من هجرة النساء لشارع السعدون، والمكتبة برأيه قائمة على وجود النساء.

فركت فروة رأسي، فقال:

ـ نعم نعم، لا تستغرب، فلولا النساء لقتلنا الجوع.

ثم رفع سماعة الهاتف واتصل بأحدهم. لم أنتبه للحديث، فما حصل البارحة يدفعني للشرود. شردت في الوادي واستحضرت قولًا لمارك توين:

«كنت ميتًا قبل أن أولد لمليارات السنين ولم أشعر بأدنى قدر من الانزعاج.»

تساءلت في سري عمّا إذا كان توين صالحًا بما فيه الكفاية لكيلا يشعر بالانزعاج؟ أم أنه أراد بهذا القول سلب الموتى الشعور برمّته؟ المحيّر أن لا أحد يعرف في أي عام قالها، أعني في أي وقت من حياته؛ حين كان ساخرًا وأراد مشاكسة الموت، أم بعدما رحلت زوجته وأصيب بمرض الاكتئاب! تمنيت ألا يكون ساخرًا.

ـ ماذا تقرأ هذه الأيام؟

باغتني خالي جبران بسؤال لا يفوّته كلما التقينا. كانت بينه وبين القراءة علاقة وجودية، ولا ينفك يسأل عنها. ذات مرة مازحه واحد من رفاقه واصفًا إياه بحطب جهنم، فردّ عليه بثقة عالية: «القرّاء لا يدخلون النار، وإن كان لا بد للّٰه من سؤالهم يوم القيامة، فلن يكون أكثر من سؤال واحد: ما آخر كتاب قرأته؟»

بالنسبة إليّ، كان السؤال معتادًا، إلا أني رغم ذلك جفلت، ووجدتني حائرًا في جوابه.

في النهاية قلت:

ـ دفتر الأرواح.

ضيّق عينيه مثل قارئ يستوضح غبش السطور، وأوشك على التقصّي عن اسم المؤلف وفحوى الكتاب ودار النشر وسنة الطبع. لكن إحداهن دخلت في الأثناء لتنقذني من جلسة التحقيق. امرأة

في الثلاثينيات من عمرها، ترتدي سترة أنيقة وكعبًا عاليًا. ألقت التحية وشرعت تقلّب الكتب المعروضة على طاولة اليمين. تنحنح إذ ذاك خالي جبران، وقد بان عليه الارتياح، وبادر لليّ وجهتها قائلًا: «هنا كتب الأدب، أختي العزيزة.» فابتسمت المرأة برقّة وأومأت شاكرة، ثم أخذت تفتش في الروايات والقصص وتحمل على زندها ما يعجبها. دفعت في النهاية المبلغ دون نقاش السعر ورحلت مودّعة.

«ألم أقل لك لولا النساء لقتلنا الجوع؟» ردد خالي جبران، ثم أشعل غليونه وراح يشرح مع الدخان نظريته في الأسباب التي تدفع المرأة إلى قراءة كتب الأدب:

ـ على عكس الرجل، تنضج المرأة مبكرًا، تسبقه فسيولوجيًا، لذلك فإنها مبكرًا تدرك أن الحياة عاجزة عن الإبهار. حينها تبدأ بالبحث عن حيوات أخرى لا وجود لها إلا في القصص والروايات. وهي بذلك تكون قد شفيت تمامًا من آثار الصدمة التي أصابتها جراء العيش مع جنس مختلف في الطبع والتكوين، جنس من شأنه أن يتأمل السقف لساعات دون غاية!

ـ تكلّم عن نفسك يا خال، فأنا لا أتأمل في السقف.

عقّبت على كلامه، فردّ متهكمًا:

ـ لماذا؟ هل أنجبت أختي كميلة أرسطو وأنا لا أدري؟!

وضعت لفافة النقود أمامه وهممت بالرحيل قائلًا:

ـ لا أرسطو ولا آينشتاين، كل ما هنالك أن سقفي مثقوب ولا يستحق النظر. أما الانتقال إلى شارع المتنبي، فلا أنصحك به، أنت هنا مكانك معروف، والناس تقصدك.. في النهاية القرار لك.

ـ سنرى. لكن ما هذه الفلوس؟

ـ نصيبك من الوارد.

ـ أرجع فلوسك لجيبك ولا تزعّلني منك.

ـ خالي، هذا حقك، إلى متى تظل تتنازل عن حقك؟

ـ إلى أن تشتري حذاءً يليق بمقامك السامي.

ـ حاضر، سأشتري، لكن خذ الفلوس أرجوك.

ـ قلت لك لا أريد. السيارة لك، تعال في الغد معي إلى دائرة المرور كي أسجّلها باسمك وننتهي.

وإذ ذاك تذكّر ما تمنيت أن ينساه:

ـ صحيح، ماذا كان اسم الكتاب الذي تقرأه؟

ـ دفتر الأرواح.

ـ من المؤلف؟

ـ واحد من الناس.

لم أكن راغبًا بالإفصاح عن صاحب الدفتر، وما جرى في المقبرة.

ما زال الوقت مبكرًا للحديث عن أحجية لم تختمر بعد، لذلك ودّعت خالي وانصرفت.

ـ إلى أين؟

نادى خلفي، فأجبته:

ـ أحاول ألا أقف عاريًا في الريح.

- 40 -

سأستعيد تمارا وسامر مهما كلّف الأمر، لكن عليّ أولًا شراء حذاء «يليق بمقامي السامي». ذهبت إلى باعة العتيق، ورحت أقلّب الأحذية. كانت السوق مكتظة بالبضائع؛ بناطيل جينز، أحذية أديداس، بلوفرات صوف، ستر جلدية، فساتين مستورة وأخرى كاشفة الصدر، فانيلات، ألبسة داخلية وكل ما اكتفى منه الآخرون في البلاد السعيدة وألقاه عن جسده.

خرق تملأ المحال والأرصفة ولا أحد يدري من أين جاءت وكيف وصلت! يزعم بعضهم أنها تبرعات تم التلاعب بها من قبل وسطاء في منظمات الإغاثة، بينما يزعم آخرون أنها من جهود تاجر حنون يؤذيه عري الفقراء، فيركب الصعاب لأجل توفير كسوة رخيصة تقيهم برد الشتاء.

في الواقع، أنا لا أعلم أي الزعمين أقرب للحقيقة، لا سيما وأن الحقيقة عندنا تعشق الغموض، لكن يمكنني القول إن كل ما يبذله الباعة من جهود في الغسل والكيّ، لم تكن قادرة على إخفاء عورة تلك البضائع. لقد ظلت رائحة العتيق تزكم أنوف المارة وتعيّرهم بفقرهم، وظل ذاك التاجر الحنون يرمي على أهله كل خرقة بالية.

انتهيت من التقليب واخترت واحدًا مصنوعًا من الجلد المبطن بالفرو. «تقطّعه بالعافية، مولاي.» قال البائع الشاب، وهو يناولني الحذاء ويضع النقود في جيبه.

آخ من كلمة «مولاي» التي اخترقت حياتنا بلا تمهيد، وباتت تنط بين سطور الكلام على أنها الفارزة الوحيدة للخطاب. فيما مضى كنا نسمعها من على شاشة التلفاز في حكايات ألف ليلة وليلة، والمسلسلات التاريخية. أما الآن، فصارت رائجة في التداول اليومي، وما تلبث أن تكلّم أحدهم حتى يرد عليك: «حاضر مولاي، بخدمتكم مولاي.» بل يضيف بعضهم قيد الجلالة وكأننا في مدرسة دينية: «مولاي الجليل، أنا خادمكم الصغير.»

ما أقبح التصنّع! أعطني حاجتي وخذ فلوسك، وانتهينا.

«شكرًا وردة» أجبته، ثم رميت الممزق بالقمامة وسرت بالسليم. شعرت بعد عدة خطوات بطاقة إيجابية تسري في بدني، فعدت أدراجي وسألت البائع المتصنّع:

«عفوًا صديقي، هذا الحذاء من أي بلد؟»

بلا فواصل قال البائع:

«مولاي فرنسي.»

فشكرت اللّٰه على نعمة العتيق، ومضيت في طريقي. وإذ ذاك همس لي حذائي الفرنسي الخفيف: «دع الحزن جانبًا وانطلق أيها الشاب الأشقر.» فتعجلت المسير. فتحت باب البيجو، وكان أول فعل

قمت به، بعد الجلوس خلف المقود، النظر في المرآة الخلفية. أريد رؤية هذا الشاب الأشقر. خاب ظني؛ الصورة هي الصورة ولا شيء تبدل سوى أن انتفاخ ما تحت العينين قد زاد قليلًا واسودّ لونه، فأدرت المحرك وانطلقت صوب حي اليرموك.

لكن البيجو تعطلت وذرتني عالقًا في الطريق.

لو ارتبط الأمر بالإطارات، لهان وما استحق الذكر حتى، فإبدال إطار مثقوب لعبتي الوحيدة التي أجيدها في عالم السيارات المبهم. لكنه المحرّك؛ اللغز المحيّر الذي ظل على الدوام يعيّرني بجهلي.

ترجلت ولا أعلم ما ينبغي فعله. رفعت الغطاء وانحنيت أنظر في الأسلاك كالأبله، وحين عجزت تنحّيت جانبًا بانتظار حل سحري لا أدري من أين يأتي! نفد صبري، وسرعان ما ينفد صبري، فأطلقت في الهواء الكثير من الشتائم. وفي النهاية أرسلت لي السماء زميلًا بدا عارفًا بشؤون المحرّكات. ركن أمام سيارتي وترجل قائلًا:

ـ خير؟!

ـ واللّه ما أدري يا أخي، المحرّك فجأة سكت!

ـ آه، بسيطة.. بسيطة.

نظر في القلب المفتوح وطالبني بتدوير المفتاح، ثم تساءل عن كابل، لا أملكه، فقال:

ـ لا تقلق، عندي واحد في الصندوق.

ثم أخرج من مؤخرة السيارة كابلًا مزدوجًا بكلّابات معدنية أوصله بين البطاريتين، وبدورة واحدة لمفتاح التشغيل تم إنعاش القلب وسارت البيجو. كبست على الزامور علامة شكر للرجل، وواصلت المسعى.

ـ 41 ـ

لا بد لهذه المهزلة أن تنتهي.

طرقت الباب، وفتحتْ عمّتي. قالت إن تمارا في المشفى، لقد ساءت حال سامر وذهبوا في الصباح. هرعت خلفهم، فصعقني رهط التوابيت على باب المشفى.

ـ مات سامر؟!

صرخت بوجه عمّي شاكر، فأجاب:

ـ لا لا، سامر بخير.

ثم حدّثني عن عزم إدارة المشفى الخروج بمسيرة لجنائز أطفال قضوا بسبب نقص الأدوية وفقر المشافي. موكب من مئات النعوش المحمولة على مركبات الأجرة، سيسير في شوارع بغداد علّه يلكز ضمير العالم!

انتظرت حتى سار الموكب، وذهبت إلى سامر. حملته ولا أدري إن كنت فرحًا لنجاته أم حزينًا لموت أقرانه، فلطالما لعبت هذه البلاد بمشاعرنا وجعلتنا كالبلهاء؛ لا نحسن التفاعل!

ـ اطمئني، سيعيش سامر.

قلت لتمارا، فبكت.

احتضنت رأسها وقبّلته، لنعود سويّة بعدما فرغ الطبيب من إسعاف صغيرنا. بتّ تلك الليلة في غرفة الضيوف محتملًا أجواء الكراهية التي تجيد العمّة إثارتها. وفي الغد جلست مع تمارا أحيك لها عهود الوفاء دون جدوى. لقد ظلّت ساكتة لا تعلّق، فما كان مني إلا أن عاودت كتابة الرسائل. صرت بين الحين والآخر أكتب رسالة وأرفقها بوردة من حديقة منزلهم، فتقرأها دون تعليق. وشيئًا فشيئًا بدأ لحام قلبها يتكسّر.

جلسنا ذات مساء على الأرجوحة وناولتها رسالة مختومة ببيت شعر تحبّه لدرويش، وبعهد قديم: «وكم مرّةً تستطيعين أن تقتليني لأصرخَ: إني أحبّكِ كي تستريحي؟ استريحي فلن يشغل القلب سواكِ يا ميرفت أمين.» حالما قرأتْها، ابتسمت، لتقبل بذلك توبتي، لكنها اشترطت ألا أشرب «السمّ» ثانية.

بيني وبينكم، لو أنها طردتني لكان خيرًا لي من القبول بشرط كهذا. التوقف عن شرب الخمر يعني أخذ الحياة على محمل الجد، والوقوف أمامها ببدلة وربطة عنق، وهذه الأشياء تخنقني، بيد أني رضيت وما كان قد كان.

ومما كان أني بتّ سائقًا ثقيل الدم، لا يطيقني الراكبون، ويرجون قصر المسافة. لقد تبدّل عدّاد الغضب في رأسي وتحولت إلى كائن سريع الاشتعال، يشتم لأتفه سبب.

في أحد النهارات أركبت زوجين يرومان الذهاب إلى حي العدل، وقد علمت من خلال حديثهما أنهما في خصام. كان الزوج يردد: «اذكري اللّٰه يا مَرَه.» بينما الزوجة ساكتة تنظر إلى جهة اليمين.

اجتاحني الغضب لصمتها، ورفعت صوت المذياع في محاولة لطرد ذباب الحماقة الذي بدأ يطن في أذني. سأضربها إن ظل الزوج يتوسل هكذا، أو أركن على الجسر وأرميها في النهر. صحيح أنّي كنت جاهلًا بدواعي الخصام بينهما، وأنّ ضخامة الزوج مؤشر لا بأس به لكونه المعتدي، لكن طريقة الزوجة في التعاطي مثيرة للغضب.

توقف الرجل عن الكلام وأخفضت المذياع. «هنا لو سمحت.» قال على مقربة من أحد الأزقة، ثم دفع الأجر وترجّل. أما المرأة، فأغلقت الباب بقوة ارتجّ لها بدن البيجو. إذ ذاك شتمتها بصوت، لسوء حظي، كان مسموعًا: «يا بنت الكلب!»

لقد ثقبت الكلمة أذن الزوج وهيّجت غيرته، فدار حول السيارة وأنزلني منها. أخذ بتلابيبي، والزوجة واقفة تراقب، ثم راح يصرخ: «قلها ثانية، قلها ثانية.» لكمني برأسه، ورماني في الأرض. حاولت النهوض لاسترداد شرفي ولو بضربة طائشة، لكنه رفسني في بطني، وظل يركل خاصرتي وفخذي ثأرًا لزوجته التي بدا أنها رضيت عليه أخيرًا، إذ جاءت عنده تقول بصوت صاف: «اتركه، أمجد، اتركه اللّٰه يخلّيك.» ثم تعلّقت بزنده وذهبا.

عدت مدافًا بالتراب، وفي نفسي توق لاحتساء كأس تذلل الشعور بالمهانة. لكن العهد عهد، ولن أقف عاريًا في الريح بعد الآن مهما حصل.

ـ 42 ـ

اجتاز سامر عامه الأول، وصار لديّ طفل مكتمل الأهلية لقول «بابا»، لكنه لم يقلها. تأخر لديه النطق قليلًا، وذلك ما أقلق تمارا.

ـ لا تقلقي يا حبيبتي، أنا تكلمت في الثالثة من عمري.. هذا ما تقوله أمي.

قلت لها، فهمهمت:

ـ هممممم!

كانت تلك الهممممم بمثابة تهمة ثقيلة مفادها؛ أنت من أورثته الفشل في النطق إذن!

في حفل عيد الميلاد الذي أقامته تمارا في بيت أهلها، اجتمعت العائلة؛ الجد والجدة، والخالات وأزواجهن، والخال والكنّة والأحفاد.. وأنا. قالت إن بيتنا ليس مؤهلًا لاستقبالهم، فمرّرتها لها ولم أعترض. كان عليّ أن أهدأ ما دمت قد قررت الاحتفاظ بهما. ذهبنا هناك، واجتمعنا حول كيكة الميلاد، ثم غنّينا لسامر وأطفأنا الشمع. قُدّمت الهدايا من بعد، وكنت قد اشتريت له حجلة. حمدًا للّٰه أن الحفل انتهى دون عراك، فنظرات عمّتي وفخرها بزوجَي بنتَيها المبالغ به كان مثيرًا للحنق.

عدنا إلى البيت وأركبت صغيري حجلته، فدفعها بجسده الضئيل وراح يدور في الفناء وهو يكركر.

لقد صفعتني كركرات سامر، وندمت أني كنت فيما سبق رافضًا للأبوّة.. داهمني شعور بالسعادة يتعذر وصفه، ولو أن أحدهم تساءل آنذاك: «من ملك العالم؟» لقلت بلاد تردد: «أنا.»

أجل لقد ملكت العالم بأسره حين مشى سامر بالحجلة أمامي وكركر. أخرجته منها وشرعت بقذفه في الهواء حتى كاد يموت من البهجة والضحك.

لكن من قال إن مارد النحس ينام؟!

فبعد بضعة أيام حملت الصغير إلى جدّته أم صبيح كي تراه، كانت تمارا خائفة عليه.

ـ لا تخافي، لن تأكله أمي.. ساعة ونعود.

حرّكت رأسها يمينًا وشمالًا وقالت:

ـ لا أقصد أمك.

ـ أعرف، حبيبتي، لكن من حقها أن ترى حفيدها.. تعالي معنا.

ـ لا، لا داعي، سلّم لي عليها، ولا تتأخرا.

ـ حاضر.

وضعته في حجري، وقدت السيارة إلى حي السكك. أركنت على باب بيتنا، وترجلت حاملًا الحفيد إلى جدّته العاجزة على احتضانه

حتى. أسندته على صدرها، فشمّت رأسه وبكت. ثم جاء الصغار وتحلّقوا حولنا. حملته زوجة أخي صبيح الثانية وقبّلته، ثم داعبته وضحك. أما أنا، فانشغلت بأمي التي ظلّت تشير بيدها نحو الخزانة وهي تهمهم بكلمات غائمة. نهضت وفتحت الباب، فأشارت إلى صرّة في الأسفل. فككتها، فتفاجأت بأسمال لطفل بعمر سامر. فهمت من إيماءات أمي أنها ثياب طفولتي، ما تزال محتفظة بها.

«خذها لابنك» هكذا حاولت القول، فاحتضنتها وقبّلت جبينها. ثم عدنا، أنا وسامر والثياب.

لم أذهب للعمل ذلك النهار، تناولت وتمارا طعام الغداء وشاهدنا فيلم الظهيرة، بينما سامر يطوف حولنا بحجلته السعيدة. ثم وقبل المغيب بساعة تقريبًا أخرجته على باب الدار كي يتنفس حياة الشارع. عليه أن يرى الناس ويقترب منهم خشية أن يصاب بلعنة الانكفاء. يكفيه ما ورثه من علل.

قفلت عجلات الحجلة وجلست قربه على عتبة الباب. مرّت بنت الجيران وغازلته بنظرة وابتسامة، ثم جاء راكب درّاجة وألقى علينا التحية بواسطة رنّات من الجرس الصغير. «سأشتري لك واحدة عندما تكبر يا حبيبي» قلت لسامر وأنا أداعب رأسه. وفي الأثناء تعالى صراخ من جوف الدار، فهرعت له. كانت تمارا قد رأت أفعى تلج إلى موقد الغاز. جذبتُها خشية غدر الأفاعي، وأشعلت الموقد. كانت خطة فاشلة لإجبار الأفعى على الخروج ثم إعدامها بواسطة مغرفة الرز. بقينا ننتظر، دون جدوى.

لا بد من جحر ينتظرها تحت الموقد. أزحناه من مكانه، فصدقت الظنون. «سخّني الماء» قلت لزوجتي المفزوعة، فاستجابت، وسكبت الماء المغليّ في الجحر، ثم ردمته بالحصى. «أكيد، ماتت.. لا تخافي.» قلت وأنا أعيد الموقد إلى مكانه، ثم خرجت عند سامر، لكني وجدت الحجلة فارغة.

الفصل الخامس

- 43 -

كن رجلًا لمرة واحدة في حياتك وطلّقني!

كانت تمارا قد أصيبت إثر الحادثة بنوبة قلبية، ورقدت في السرير لأيام طويلة. لم يحتمل قلبها ضياع سامر، كما لم تحتمل رؤية وجهي. طالبتني بالطلاق، وعندما أجبتها بأننا شريكان في المصيبة، ولا ذنب لي فيما حدث، قاطعتني: «كن رجلًا لمرة واحدة في حياتك وطلّقني.» ثم غادرت وتركتني وحيدًا أتجرّع غصّة الهوان.

لم يدر في خلدي عندما اقترنت بتمارا بأن حياتنا ستكون بائسة إلى هذا الحد. أعرف جيدًا ما كانت تضمره لي من تهم بالكسل والتقاعس، وبالفشل من اللحاق بأقراني.. غير مرة لمّحت لذلك. ذات يوم كنا جالسَين أمام التلفاز، نتابع نشرة الأخبار، فظهر شخص نعرفه منذ أيام الجامعة. كان متأنقًا ببدلة ورباط عنق، مشارًا إليه أسفل الشاشة بمدير المهرجانات في وزارة الثقافة، تحدث عن استعدادات الوزارة لإقامة مهرجان «أيام الجاحظ» واصفًا إياه بالمهرجان الثقافي الأكبر على مستوى المنطقة.

لقد بدا آنذاك متحمسًا لإقامة فعاليات كتلك التي من شأنها تسليط الضوء على أسماء كبيرة في التاريخ مثل الجاحظ. لكنه، وخلال

أربعين ثانية، مدة حديثه، ارتكب مجزرة لغوية تدمي قلب الجاحظ. ابن الغبي نصب فاعلين ورفع حالًا، كما عطّل عن العمل كل ما خلق اللّه من حروف جر.

أتذكر أني ضحكت حينها وصحّحت خلفه جملتين أو ثلاثًا، على العكس من تمارا التي زفرت بحرقة، ثم تركتني وذهبت إلى الفراش قبل موعد نومها بساعتين. أعرف جيدًا ما جال وقتذاك في خاطرها، ولو طالبتني بالانفصال، للبّيت طلبها، فليس عندي ما أضيفه تعليقًا على هذا السيرك الكبير.

الآن، ولذنب لم أقترفه، تشهر بوجهي البطاقة الحمراء وإلا فلست رجلًا.. ما أسخف الرجولة حين تُمتحن بكلمة!

طويت صمتي ورحلت. عدت إلى المنزل وجلست أحتسي الخمر حتى فاض من أذنَيّ. لكن قِدر الغضب لم يبرد، وهذه معضلة على أهل العرَق أن يجدوا لها تفسيرًا. إنما خلقت الخمرة للنسيان، فما الذي دهاني؟!

خرجت بخط مستقيم كالجندي. ربما احمرّت عيناي، لا أدري، إلا أني ظللت صامدًا بوجه الثمَل. ركبت السيارة وضغطت على كابس الوقود قاصدًا وادي الفراشات.

- 44 -

في اليوم المشؤوم الذي رأيت فيه الحجلة فارغة، كنت قد خرجت كالمجنون أطرق الأبواب للسؤال عن سامر. فتّشت الأزقة وهمت في الدروب وذهبت عن النهر. سجّلت بلاغًا لدى الشرطة، ودرت المشافي والمراكز رفقة خالي جبران، لكن دون جدوى. تذكرت في النهاية بدري النقاش وهرعت أبحث عنه في حارة النقاشين، فهو أعرف الناس بمخابئ بغداد وخرائبها.

كانت المحال وقتئذ مغلقة وأزاميل النقش كف زعيقها واستراحت. اجتزت السوق ودلفت إلى الأزقة العريضة حيث المنازل وهام شجر النارنج المطلّ من خلف الأسيجة. طرقت أول باب ولم يفتح. لا بأس، هنالك الكثير، وما زال الوقت مبكرًا على اليأس. طرقت الثاني، فكان الجواب: «عذرًا، لا أعرف شخصًا بهذا الاسم!» سرت حتى آخر الزقاق، وانعطفت يمينًا في زقاق أضيق. لكني فوجئت بأن الأجوبة متشابهة؛ لا أحد يعرف بدري النقاش!

أدرت المحرك وغادرت بغداد، ذهبت إلى وادي الفراشات علّني أجده هناك، فأسأله عن سامر. علّ صدري يشفى من لجّة القلق. سيفجعني إن كان قد لقاه ميتًا، لكن لا مهرب من السؤال. ركنت

سيارتي وسرت إلى الوادي، فلم يكن هنالك من أحد سوى الموتى. انحدرت حتى السدرة، ففوجئت بالنقاش نائمًا في القبر الفارغ تغشيه ورقات من السدر والحصى!

«حتى أنت يا بدري؟!» قلت وأقعيت على الأرض حائرًا، ثم تناولت الجاروف ودفنته بالتراب. بكيت كثيرًا وكأني لم أبك من قبل، بل سكبت حصّالة الدموع التي وفّرتها منذ موت أبي. ولا أدري إن كنت بكيت حارس الوادي، أم ابن قلبي، أم خيبتي التي باتت أثقل مما يحتمل!

تركت الرجل يرتاح في قبره وذهبت إلى السيارة، جلبت زجاجة العرَق وجلست على حافة الوادي أحتسي ما لم يعد ينسيني. كانت السماء مرصّعة بالنجوم، وضوء القمر منسكبًا يضيء عتمة القبور. ارتشفت رشفة طويلة تضيّقت لها عيناي، ومسحت بكمّ القميص فمي. ثم أردفتها بثانية فثالثة، وإذ ذاك حامت فراشة حول رأسي. كانت مضيئة كالنجم.

ـ من أنتِ يا هذي؟

سألتها، بين الصحوة والسكر، فقالت:

ـ أنا هناء. عدت للتوّ من الديار.

ـ ماذا رأيت هناك؟

ـ رأيت العجب، لقد مرّت فوق ذكرانا محدلة النسيان، فلا أحد من آبائنا يذكرنا بخير أو شر.

ـ لكنك تبدين سعيدة!

ـ أجل، أضحكني إمام المسجد. كنت قد وكّرت على إحدى المنائر لأخذ قسط من الراحة، فسمعت ما قاله الإمام عقب صلاته.

ـ ماذا قال؟

ـ أوصى المؤمنين باجتناب مهالك الشيطان محذرًا مما وصفهم بأبناء الزنى.

ارتشفت من الزجاجة وتساءلت:

ـ وهل هذا مضحك برأيكِ أيتها الفراشة السعيدة؟

ـ لا، لكنه قال إن اللّٰه يغفر ذنوب الزناة إذا تابوا، لكن «أولاد الحرام» لا يشمّون ريح الجنة مهما فعلوا.

طارت فوق القبور ورفرفت، ثم عادت لتحطّ فوق كتفي. «هل رأيتِ سامر؟» سألتها بلسان ثقيل، فقالت: «لا.» فانكفأت على يميني ونمت.

- 45 -

هنا ترقد هناء

طفلة حسناء كحنطة الرب ذراها الأرذلون ورحلوا، فآلت فراشة سعيدة تروي الحكايات وهي تضحك.

عطفًا على رمَقي وما أبقيتَ لي

من جسمي المُضنى وقلبي المُدنَفِ

فالوجد باقٍ والوصال مماطلي

والصبر فانٍ واللقاء مسوّفي.

كانت تلك أول شاهدة قد سوّدتها في دفتر الأرواح. ليتوالى تسويد الشواهد من بعد، فكلما ذهبت إلى وادي الفراشات وتراءت لي فراشة هناك، دوّنت حكايتها.

بلا ملل، واصلت البحث عن سامر، أفتّش الخرائب والبساتين والضفاف مرة كل أسبوع. وكانت أسعد المرّات، تلك التي أعود منها بخفّي حنين. «الحمد للّٰه، ما زال سامر حيًا يرزق، لو كان ميتًا لعثرت عليه!» أقول في سرّي وأرتشف من زجاجة الخمر التي باتت لا تفارقني. فإن عثرت على جثة صغيرة، حملتها نحو الوادي وأقمت

له جنازة لائقة.. لقد أمسيت، من حيث لا أشعر، سائق جنائز.

عثرت ذات يوم على رضيع، كان ملقى عند تل القمامة، فوضعته في كيس وذهبت به إلى المنزل. كانت رائحته نتنة. أنزلته في طست وغسّلته ثم كفّنته بخرقة بيضاء وحملته صوب الوادي، إلا أني تعثرت بمفرزة أمن، لا أدري كيف أنقذني اللّٰه منها!

كان أصعب ما يلاقيني في تلك الأيام عبور مفارز الأمن وحواجز العسكر، فالوضع يشكو التوتر، والعالم يتجهز لغزو البلاد. الأمر الذي ظل يجبرني كل مرة على الابتعاد صوب القرى والسير في الطرق الوعرة.

خرجت من بغداد وركبت الأسفلت نحو الخالص، ثم انعطفت باتجاه القرى البعيدة، واتخذت من الجادة الترابية الطويلة مسعى للوصول إلى الوادي. حفرت للصغير قبرًا وسط إخوته، وأنزلته برويّة، ثم أغلقت عليه، وعدت لكتابة الشاهدة:

هنا يرقد أمين

بين الخرق وفضلات الطعام، كان غافيًا كالملاك. جفناه مسدلان برفق وفمه ملموم كأنه حبة جوز ناضجة. رأيت حين رأيته قططًا تلوغ فلذة القمر، وفوق التل غرابًا يتربّص. اقتربت ونششتها، ثم حملت النعش في جنازة فطرت قلب السماء ودافته بالفجيعة.

سكنتَ قلبي وفيه منك أسرارُ

فلتَهنِك الدار، بل فليهنِك الجارُ

ـ 46 ـ

مرّت الأيام وأثقلت الشواهد الدفتر، كما أثقل الفقد كاهلي. كان خالي جبران قد طرق الباب ذات نهار معزيًا:

ـ البقاء في حياتك، الوالدة أعطتك عمرها.

ذهبنا هناك، وكان النعش محمولًا فوق سيارة تويوتا كراون. يتصدرها صبيح، وفي الخلف شخصان من أهل الحي. انضممنا للموكب خلفهم حتى مقبرة الخيزران، فكان لي أن رأيت قبر أبي أخيرًا. كان الدفان قد جهّز لأمي قبرًا في الجوار وأنزلها فيه. وقفت أمامه وقرأت في سري مما أحفظ:

يا راحلًا وجميل الصبر يتبعه

هل من سبيلٍ إلى لُقياكَ يتفقُ

ما أنصفَتْك جفوني وهي داميةٌ

ولا وفى لكَ قلبي وهو يحترقُ

بعد أمي، لم يبق لي من الأحياء إلا خالي جبران وسامر، ابني الذي لم يسمعني بعد كلمة «بابا». أما تمارا، فلم أرها سوى مرة واحدة. كان

ذلك حين وقفنا أمام قاضي الأحوال الشخصية لطيّ صفحة الزواج.

لقد داف الحزن حياتي ولم تعد كما كانت، فلا ضرس يضحك ولا حديث يُشتهى. كنت أقضي النهار في العمل، وأستريح بين الفينة والثانية عند خالي في المكتبة. لم يزل الرجل في ضلاله القديم؛ يلعب الطاولي ويدوّن خسارات خصومه في دفتره الصغير، رغم ما مسّ المكتبة من تعب. لقد زاحمتها محال الإعلانات الضوئية، حتى باتت يتيمة في شارع السعدون.

والحقيقة أنّ كل مكتبات بغداد قد تيّتمت آنذاك وصارت تغلق بعد الظهيرة. الكثير منها تحول إلى محال قرطاسية، أو مطاعم، أو مقاهي إنترنت في أفضل الأحوال. تلك هي أبواب الرزق المفتوحة، وأما إن أردت العمل دون توقف، في الليل والنهار وما بينهما من فجر كاذب وصادق، فتوكل على اللّه وافتح مكتب دفن. فالجثث بفضل الحرب غدت أكثر من الحصى، والأشلاء مبذولة في الطريق.

اشتريت في يوم من الأيام حمولة سعف وقصب، وسوّرت بها الوادي خشية أن تبلغه جثث الكبار. على وادي الفراشات أن يظل طاهرًا عن الدنس. فعلتها في النهار، فالليل أمسى أسيرًا لحظر فرضه جندي يرطن بلغة لا نفهمها. وحالما انتهيت، علّقت لافتة صغيرة: «وقف عشيرة النقاشين.»

أما جنائز المنبوذين، فبات حملها أكثر شقاءً مما كانت عليه. ففي

الوقت الذي ارتفعت فيه شراهة الزناة وكأن الحرب والتفجيرات تحدث في الصين، كان الخطر قد داهم الطرقات وضيّقها. فكّرت في حل مناسب، ولم أجد سوى شق المقاعد الخلفية للبيجو، وإخفاء الجثة الصغيرة فيه ريثما أصل وادي الفراشات. كانت فكرة حسنة، أعانتني كثيرًا في أداء المهمة دون عقبات.

ـ 47 ـ

مرّت الأيام وهدأت البلاد أخيرًا، فجاءت الحاجّة أم رياض تطالبني بإخلاء المنزل. قالت إنها تروم هدمه وتشييد شقق ومحال على أنقاضه. رفضت الامتثال لها، فلا مكان يؤويني غيره. وفي الغد جاءت برفقة شابّين معضّلين يستقلان عربة دفع رباعي حديثة.

كان واضحًا على المرأة أنها قررت على عجل استخدام لغة أخرى، لغة نافعة مع العزّل أمثالي، فرجوتها أن تمهلني ريثما أجد مسكنًا.

ـ أسبوع واحد، وبعدها.. أنت تعرف.

أظرف ما في القصة أنها حصلت في قلب المدينة وتحت عين الشمس! أقول هذا لأن بعضكم ما زال يشك في أن بغداد مدينة الظُرف بامتياز.

ـ حاضر يا حاجّة، على عيني.

استدعيت بائعًا من سوق الجمعة، ومنحته أغراضي بسعر زهيد، ثم حملت حقيبتي واستأجرت غرفة في فندق بائس يقع على الضفة الأخرى من شارع السعدون.

لم أخبر خالي جبران بالأمر، فمذ طلّقت تمارا وهو يحثّني على

الانتقال والعيش معه. لا أريد لحكاية الوادي أن تنكشف، فذلك عهد قطعته للنقاش في قبره. لكن خالي أذكى من أن تمرّ عليه المسائل دون شك على أقل تقدير. كان يشعر أن طبعي قد تبدل، وأني كبرت قبل الأوان وخط الشيب رأسي.

زادت شكوكه حين شاهدني ذات يوم أدوّن سطورًا في دفتر الأرواح. كنت قد جلست مكانه ريثما يقضي حاجة في السوق، وعندما عاد تساءل عما أفعل.

ـ لا شيء.

أجبته، فخمش الدفتر من بين يدَيّ وراح يتصفّح الشواهد.

ـ ما هذا؟ هل تحوّلت إلى دفّان، وأنا لا أعلم.

ـ مجرد قصص قصيرة يا خال، لا تهتم.

ـ قصص؟! لهذا الحد يعجبك ابن السعيد؟!

ـ من هذا؟

ـ ما بك؟ ابن السعيد، مؤلف «الموقد» و«قبو الأشباح».

ـ لا أعرفه.

ـ كيف لا تعرفه، صاحب رواية «تحت ظلال الصفصاف» ما بك؟ كنت معجبًا بها في مراهقتك.

ـ آه، تذكرته.

قلت وأردفت:

ـ لكنه كاتب ساخر، ما علاقته بالقبور؟

ـ هكذا يمسي الكتّاب حين يغادر الحب قلوبهم.

دخل في الأثناء شاب يسأل عن رواية «المسرّات والأوجاع» للتكرلي، فأشار خالي إلى الرف:

ـ هناك.

وبعدما باع الرواية، جلس يحدّثني عن مصير ابن السعيد. قال إن حياته دُمّرت بمرض زوجته وموتها، فبات أسير المقبرة. لكنه لم ينقطع عن الكتابة. كل ما في الأمر أن حبره بات أشد سوادًا من الفاجعة، فتبدلت بذلك قصصه من المرح إلى ما يشبه الرثاء.

ـ أين هو الآن؟ ما زال يكتب؟

ـ أجل ما زال، وقد أرسل لي مخطوطًا جديدًا بغية تنقيحه والتوسّط في طبعه لدى أصحاب المطابع. الشهر الفائت زرته في بيته، فكان رثّ الهيئة كأنه درويش.

مدّ خالي يده في الدُّرج وأخرج المخطوط؛ «حارس القبور» وألقاه أمامي:

ـ تفضّل، اقرأ.

تصفّحته، فشعرت أن ابن السعيد عارٍ في الريح حقًا. لقد آلمني أن يتحوّل كاتب ساخر إلى موكب جنائز. غير أني شعرت بخالي جبران يروم إنقاذي مما أنا فيه بالكتابة هذه المرّة لا القراءة!

ـ ما رأيك أن تكتب قصة من تلك القصص القديمة؟

أدهشني قوله؛ إذ لا أتذكر أني كتبت قصة ما لم يعلّق عليها بالهراء. تمارا هي الأخرى كانت تهزأ بي، وعندما نتشاجر كانت تعيّرني بالقول: «يا حضرة الكاتب العظيم.» علمًا بأني لم أزل في بداية تجريب الكتابة.. لهذا وذاك كنت قد اقتنعت بفشلي وكففت عن مسك القلم.

ـ القصص التي كنت تصفها بالهراء يا خال؟

ـ هراء، خراء، المهم أن تعود للكتابة.

ـ لا أستطيع، الكتابة كالزواج عمل شاق.

أشعل الغليون ونفخ الدخان وقال:

ـ حسنٌ، ما دمت فاشلًا في كل شيء، فخذ حرّر هذا المخطوط لعلّك تخجل من نفسك.

ـ ثقتك بي تصيبني بالفخر يا خال.

ـ على راسي.

قرأت المخطوط، الذي لم يكن بحاجة إلى مراجعة، فلابن السعيد من الخيال واللغة ما يجعل المراجعة خلفه ضربًا من العبث. وبعد وقت كانت الرواية تزيّن رفوف المكتبات. أتذكّر أني حملت نسخة منها وذهبت بها إلى وادي الفراشات. جلست عند قبر النقاش، ورحت أقرأ له، فطارت من قبره فراشة ووكّرت على كتفي.

أخرجت دفتر الأرواح بعدئذ وكتبت:

هنا يرقد بدري النقاش

على هامش الحياة عاش غريبًا حتى امتلأ بالخيبة. لم يكن له ولد، لكنه أب رحيم لعشيرة من فراشات. كان نائمًا تحت السدرة، فحثوت عليه التراب وسقيته بالدموع.

لا تلُمْني فاللومُ مِنّي بعيدُ

وأجِرْ سيّدي فإنّي وحيدُ

- 48 -

طال من بعدُ ذقني وابيضّ حتى صار خالي جبران يسخر مني، فلا يناديني إلا بابن السعيد.

أما أنا، فواصلت البحث عن سامر، الذي ضاع في غفلة من الزمن. لم أتوقف عن رحلات البحث تلك، بل شعرت أن خبايا بغداد وخرائبها وبساتينها وشطآنها قد ملّت رؤيتي!

ذات يوم من أيام العام 2010، عثرت على طفل مرميّ قرب معمل مهجور. كان بعمر سامر فيما لو ظل الأخير حيًّا، لكنه لا يشبه سامر على أية حال. بدا لي وأنا أقلّبه أنه قد تعرّض لسرقة الأعضاء. هكذا يقول شق بطنه المخيط بطريقة سيئة. الكلاب السائبة هي الأخرى لم ترحمه، فلحمه منهوش وذراعاه موشومتان بآثار العض.

كان كبيرًا على النعش الخفيّ في السيارة، فاضطررت لوضعه في الصندوق، وغشّيته بقطع حديد لقّطتها من أمام المصنع. ثم سرت بالنعش صوب الوادي. افتقدت في الأثناء دفتر الأرواح، لقد نسيته في غرفة الفندق. فكرت في العودة، ثم عدلت عنها، سأعود في الليل لتدوين الشاهدة. مضيت، لكنّ نحس الحمقى كان بانتظاري على

قارعة الطريق، فقد أوقفني حاجز مؤقت لم أعهده من قبل، وأخضِعت للتفتيش.

ـ ماذا تحمل في الصندوق؟

قال الجندي وهو يهمّ بفتحه:

ـ حديد.

مدّ ماسورة البندقية ونبش قطع الحديد، لينكشف بذلك وجه الصبيّ، ويتم القبض عليّ بتهمة تجارة الأعضاء.

«أما كان لك ألا تكون أحمق يومًا؟! حتى المجانين لا يفعلون فعلتك هذه يا عزيز!» قال خالي جبران معلّقًا. «كيف نخلّصك من هذه الورطة، وقد وجدوا الجثة في سيارتك؟!»

كان سؤالًا محيّرًا، لكني حمدت اللّٰه أن أوراق البيجو قد صارت منذ وقت قريب، باسمي، وإلا للحقت التهمة خالي كذلك.

ـ دعها على اللّٰه يا خال، ما جرى قد جرى.

أجبته بلا زيادة وانكفأت خلف القضبان. كنت أعلم بأني وقعت في المحظور ولا جدوى من التبرير. صحيح أني أنكرت التهمة جملة وتفصيلًا في جلسات التحقيق، غير أن الإنكار لم ينفع، والنوايا لم تُصدَّق، فالقانون لا يحمي المغفلين بحسب السيد المحامي. أما المحققون، فعندما يئسوا من أخذ اعتراف على «العصابة» وأفرادها ورئيسها حمّلوا القضية على كتفي، وحكم عليّ بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا.

- 49 -

وضعت «دفتر الأرواح» من يدي واستلقيت على السرير، فجاء مدير السجن بالبشرى. قال إن مصلحة السجون قد قررت خصم نزر من مدة حكمي لحسن السيرة والسلوك، وسيتم إطلاق سراحي في بداية العام الجديد.

اختلطت مشاعري بين الفرح والبكاء، وأحسست أن فراشات الوادي التي جاءت بي إلى هذه الزنزانة هي من قررت إخراجي منها. دسست الدفتر تحت الوسادة، ورحت أتلقّى التهاني من رفقاء السجن، الذين احتفلوا من خلال مدّ سفرة الطعام وتخمير الشاي.

ثم جاء العام 2024 وظللت أراقب الباب متى يُفتح وأتلقّى الأوامر بالتجهّز لإطلاق السراح. كانت أيامًا ثقيلة أعادتني إلى لحظات السجن الأولى والحساب بالطباشير على الحائط، لكنها على أية حال لم تطل، ففي صبيحة الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من شهر شباط، فُكّ باب الزنزانة وصرت حرًّا.

عند ذاك لم يكن من ينتظرني خلف الأبواب. وهذا ما لم يصبني بالخيبة، فلا أحد لي في هذه الدنيا سوى خالي جبران الذي أشك في بقائه حتى الساعة. لقد بدا متعبًا يومَ جلب الصندوق.

استأجرت تاكسي من باب السجن إلى المكتبة، فآلمني صدري لما رأيت. لقد أنزلت لافتة «مكتبة جبران» ورفعت محلها أخرى: «الجوهرة للإعلان والديكور»! أما بيت خالي في الشواكة، فعلى الحائط بقايا لافتة نعي رجّحت كفة الشك وكادت تُسكت خافقي: ينعى أهالي محلة الشواكة فقيدهم الراحل الأستاذ جبران عبد الواحد العطار...

لقد رحلوا، وا ويلاه، جميعًا، وأمسيت عاريًا في الريح. حتى سامر، الذي تمنيت منه كلمة «بابا» لم يظهر للوجود. هذا على الأقل ما أخبرني به العم شاكر عندما زرته في متجره. كان جالسًا حول الطاولة الزجاجية أمام المكتب يلعب الشطرنج مع صبيّ في الثانية عشرة تقريبًا، أبيض البشرة يشبه تمارا. نهض الرجل حين رآني مقبلًا عليه، رحّب بي ودعاني للجلوس:

ـ الحمد للّٰه على سلامتك، ابني.

ـ شكرًا يا عم، اللّٰه يسلّمك.

هممت بالسؤال عما إذا كانوا قد عثروا على سامر، فقاطعني الرجل مخاطبًا الصبيّ:

ـ حبيبي سامر، اذهب للقهوة، اطلب لنا الشاي.

ـ حاضر، جدّو.

ثم حدّثني باختصار عما حصل في غيابي؛ لقد فقدوا الأمل في العثور على سامر «لكن اللّٰه عوّضنا بسامر آخر»، هكذا قالها دون استدراك حتى!

لقد تزوّجت تمارا إذن وأنجبت سامرها، وها هو ذا محفوف بعطف جده ونعيمه!

ـ حسنٌ، عم، أنا أستأذن.

قلت، فأجاب:

ـ اشرب الشاي.

ـ شكرًا يا عم.

مسحت على رأس الصبي وخرجت.

- 50 -

«ماذا بعد؟! ما الذي تنتظره يا عزيز لتقرّ بعريك ووحدتك؟!» تساءلت في سرّي، وأنا ألج مقهىً شاء اللّٰه ألا يكون معفّرًا بدخان الأراجيل ورائحة (المعسّل). مقهى صغير يحمل اسم فيروز وصوتها، كنت قد عثرت عليه مصادفةً، فداومت الجلوس فيه.

كانت على الطاولة المقابلة، وفي كل نهار، تجلس فتاة ينادونها زمن. تأتي برفقة أصدقائها أحيانًا، وكثيرًا ما تكون وحيدة تكتب. في الواقع، أنا لا أدري إن كانت الفتاة كاتبة أم لا، لكن انصهارها مع لوحة المفاتيح ينبئ أنها غير منشغلة بمشاهدة مسلسل تركي على أية حال. كانت تتعاطى مع الكتابة، وهذا يكفي لتكون أمينتي على دفتر الأرواح.

طلبت فنجان قهوة مرّة كما كل يوم، وأخرجت الدفتر من جيبي وكتبت:

هنا يرقد عزيز عوّاد

حاول ألا يقف عاريًا في الريح

لكنه فشل

أكملت قهوتي ودفعت الحساب وسرت نحو زمن. أومأت لها بالتحية ووضعت دفتر الأرواح على الطاولة أمامها، ثم غادرت المقهى. لم ألتفت، رغم نِبال الدهشة التي رشقت قفاي، بل أسرعت الخطى حتى اختفيت بين المارّة. اشتريت من على الرصيف سكينًا صغيرة، وأوقفت سيارة أجرة.

ـ إلى أين؟

تساءل السائق، فقلت:

ـ إلى اللّٰه.

وبلا فواصل:

ـ اطمئن، سأعطيك ما تريد.

كانت في جيبي حفنة نقود، من تلك التي ظل خالي جبران رحمه اللّٰه يمدّني بها عند كل زيارة في السجن. وصلنا بعد ألف أُفٍّ قالها السائق، ومنحته أجره. ترجلت بعدئذ وسرت إلى حتفي. سأحفر قبرًا وأنزل فيه حتى تنفد وشالة دمي وأستريح. اقتربت من الوادي وأخرجت السكين، لكني تفاجأت بلفافة مطروحة قرب سياج القصب. كشفتها، فوجدته صبيًا يغفو بسلام كأنه في مهد وثير! مسّدت بطرف السبّابة على حنكه، فأصدر ما يشبه ضحكة النيام. إذ ذاك رميت السكين من يدي، وحملته عائدًا به إلى بغداد.

في الطريق سألني السائق:

ـ ما شاء اللّٰه، هذا ابنك؟

ـ نعم، ابني.

ـ ما اسمه؟

فكّرت للحظة، وقلت:

ـ جبران.

انتهت

ـ **ملاحظة 1**: النص من نسج الخيال، وأي تطابق أو تشابه في الأسماء والأحداث والأمكنة هو محض مصادفة غير مقصودة.

ـ **ملاحظة 2**: الأشعار الواردة في النص قديمة تعود للحلّاج، وابن الفارض، وبهاء الدين زهير، وقد مُنحت خطًا مائلًا للتنويه على ذلك.

أعمال أخرى للمؤلف

- فوق بلاد السواد.. بيروت 2015
- صانع الحلوى/ ميلان 2017
- النوم في حقل الكرز/ بيروت 2019
- حجر السعادة/ بيروت 2022